وما بعدَ الموتِ بِقبلة

رواية

وحيد قرندل

تصميم الغلاف :

من رسم المبدع محمد راتب هورو

Mohamad Rateb Horo

moh.ratb.horo

وحيد قرندل :

Waheed Karandal

Waheed_Karandal

صُدِرَ بتاريخ :

22 / 4 / 2021

أين أنا ؟؟؟!!

ماذا يجري حولي ؟؟ لمَ تبكون؟؟ لمَ السوادُ يحيطُ بي؟؟ لمَ تلقونَ الترابَ فوقي؟! ألم تكفيني تلكَ الأيامُ المُعتمة ... إلى أينَ أنتم ذاهبون بي ؟؟

وها قد أصبحتُ بمفردي للمرةِ الألف...أرجوكِ لاتبكي ، تعالي وساعديني ، أريدُ الخروجَ من هذا المكان...أرجوكِ .. لا أريدُ البقاءَ هنا ... وها أنتِ تغادرينَّ مثلهم .

وبدأ يتمتمُ قائلاً :

" إن كانَ بكِ حزنٌ فياليتَ الحزنُ لقلبي...وإن رأيتُ بكِ وجعاً فياليتَ الأوجاعَ أشواكٌ تسكنُني وحدي ...وإن رزقني الله فرحاً فياليتَ الفرحَ يستوطنُ قلبَكِ قبل قلبي ....فقد نبتَتْ من تحت أرجُلكِ وردةٌ رائحتُها قد أطفأت لهيبَ قلبي المشتعل .

وها هو يغفو ... بوجهٍ قد أهلكهُ الدمار ... بعينينٍ مُتعبتينٍ ... وبرموشٍ يغطيهِا السحاب ... سحابٌ لا يحملُ مطراً بل مجرد أوهام ... أوهامٌ يعيشُها كلُّ فقيرٍ يحلم ... وأما هو فلم يستطع العيشَ حتى في الأوهام ! فبياضُ شعرهِ رغمَ سنه الصغير لم يكن عبثاً أو عن فراغ ... كان كالطفلِ يبكي على أمورٍ تبدو بأعينِنا تافهة ولكن قلبهُ كان يشتكي الحرمان ..

وها هو يغفو ... وكانت أول كلمةٍ تخرجُ من فمهِ أثناء الغفوة : (أتمنى الموت يا الله) .

ولكن في هذهِ الليلةِ تحديداً كانت أبوابُ السماءِ مفتوحة ... استقبلت دعاءهُ وتم إغلاقُ الأبوابِ بعد ذلك على الفور ... وماتبقّى من الأمنية وقف خارجاً ينتظرُ العطفَ من الخالق : (أتمنى الموتَ يا الله فقلبُها كالحجر يرفضُ وجودي ... يا رب : ليِّن قلبها لعلها تتقبلُ النظرَ ولو إلى وجهي فقط !)

وها هو يغفو ... غفوةٌ قد سرقتهُ من بينِ ذكرياتٍ مؤلمة كان يتعايشُ معها ... من بينِ النجومِ التي طالما اتخذت من طيبتهِ نوراً لها ... وحتى هذه الغيوم المصفوفةِ في السماء قد اتخذَت من دموعهِ مطراً وسقت به قلوبُ العاشقين ... أمَّا هم ؛ فقد حفروا في داخلهِ كل مايملكون من أوجاع ... وجعلوا منهُ مكاناً للحزنِ يقصدهُ السياح من مختلفِ أرجاءِ الظلمِ والسواد ... وجعلوا منهُ صنماً ... ساكناً ... منحوتاً من الجمرِ ... يشتهي الوجعُ الهروبَ منهُ وهو باتَ لا يشتهي التخلي عنه ! وأوردةُ فؤادهِ قد تفرقت... وريدٌ يقول : (لقد تعبت .. كفاكم ظلماً لي) وآخرٌ يطلبُ الرحمة...الرحمةَ فقط .

وها هو يغفو ... ليبدو وكأنَّهُ ملاااكٌ نائم ... ملاكٌ من بينِ الرمادِ يجمعُ بقايا قلبٍ قد أحرقتْهُ نيرانُ القدر ... الرمادُ يبكي وجعاً لحُزنهِ ، وقلبهُ قد اختارَ الرمادَ وتخلى عنهُ

-فكيفَ للقلبِ التخلي عن صاحبهِ؟!
-حسرةٌ تلو الأخرى تسكنُه ، فما ذنبي أنا ؟؟...
سئمتُ من العيشِ برفقتهِ ... جعلَ مني قلباً ينظرُ إلى الحياةِ بسوداوية ...لم أعد أحتمل ؛ وها قد تحررتُ منهُ ...أأخبرُكَ شيئاً ؟! إنما الروحُ إن إستطاعت التحررَ منهُ ستفعل بلا تردد .
ثم استيقظَ من هذهِ الغفوة ... ليرى نفسهُ في بلدةٍ ليست بلدتهُ ... ومكانٍ ليس مكانهُ ... ومتى كان يملكُ مكاناً في الأساس؟!! ليرى دمعةً هنا وأخرى هناك ... ليرى خيوطَ قلبهِ بينَ يديِّهِ ... فالجروحُ تكبر ولا تلتئم .. والخيوطُ لم تعد تحتمل .
وبدأ بالسيرِ وهو يقولُ في نفسهِ:
" لقد خُلقتُ هكذا .. الهمُّ يرافقُني ، والحزنُ في أنحاءِ القلبِ يأكلُني ... لقد باعوا المشاعرَ في داخلي باسمي ... و باعوا الوجعَ في داخلي باسمي ... حتى أنهم باعوا الحُبَّ في داخلي باسمي أيضاً !! ...

وأنا كنتُ في زوايا الطرقات جالساً لا علاقةَ لي بما يحدث ... أشاهدُ فقط أحترق و أتعذب ... أتمزق وأموت ... ليأتي القاضي ويخبرَني بأنكَّ من حقِ العيشِ بيننا قد سُلبت ... وأنكَّ ستبقى هكذا مقيداً في موطنِ الحرية ... ستبقى حزيناً في موطنِ السعادة ... وستبقى يائساً في موطنِ الأمل..

كانت تسكنني أحلامٌ بسيطة ومجرد كلماتٌ تجعلني أشعرُ بأنني مثلهم ... وفي عروقي نيرانٌ تلتهمُها نيرانُ ... أتوجعُ ؛ وكيفَ لهذا الوجعِ أن يسكت و النارُ ترافقهُ ؟! كنتُ أبكي على وسادتي .. أبكي وفي أحشائي قبورٌ قد تبعثر ترابها ... قبورٌ .. أرواحُها تبحثُ عني تريدُني معها ... كنتُ أتساءل : متى سأغادرُ إلى عالمٍ لادموعَ فيه ؟! أصبحَ الوجعُ يشعرُ بالملِ وهو يرافقُني ... فحتى دموعي أصبحت مخلصةً لاتودُ أن ترحل .

وفجأة يرى فتاةً عاجزةً ... جالسةً على كرسي متحرك على طرفِ الطريق :

-مابكِ ؟ لماذا أنتِ جالسةٌ هنا ؟

-إنهُ من القاسي جداً أن تبقى على حافةِ الأملِ ، تنتظرُ قدومَ شخصٍ يُنْسيكَ من أنت . وإنهُ من القاسي أكثر أن يخبرُكَ القدر : (كفاكَ توهُماً) .

مابها هذهِ الفتاةُ ياتُرى ؟ لماذا أرى بها يأساً لم أرَ مثلهُ من قبل؟! لماذا أراها مكسورةَ الجناحِ هكذا ؟! والدموعُ تكادُ تمزقُ زهورَ عينيها وتخرج ...

هائمةٌ... تائهةٌ ...في شوارعِ قلبِها الممزق ... لماذا أراها وكأنَّها تحملُ جبالاً فوقَ أكتافها النحيلة ؟! لماذا أرى في عينيِّها جزءاً مني ..وكأنني أعرفُها حقاً ... بل لا أعرفُها ولم ألتقِ بها أبداً ... ولكنني أشعرُ بوجعِ قلبِها جيداً ... شعرتُ بهِ في قلبي منذُ مدة ... بل ليسَ منذُ مدة ... إنني أتعايشُ معهُ في كلِّ لحظة .

اشتدَّ البريقُ في عينيه ...

إنهُ ينظرُ إليها وكأنهُ قد رأى نفسهُ فيها ... ينظرُ إلى الكرسي ليرى خدوشاً موزعةً ؛ واحدةً هنا وأخرى هناك ... لكنهُ لا يعلم أن خلفَ كلِّ خدشٍ منها يوجدُ جرحٌ ملتهب ومازال ينزف ... ينظرُ إلى بياضِ وجهها فقط ولا يعلم أن حياتَها كانت سوداء كسوادِ شعرِها .

- ما الذي دهاك ؟! ألم تعجبك كلماتي المختصرة ؟!

...حقاً أنا أسفة ، كنتُ أودُ فقط أن أقولَ لكَ بماذا أشعر ... ولكنني أظنُك أنتَ أيضاً - أيُّها الغريب - لاتودُ سماعي ... لابأس ؛ فأنا فتاةٌ مقعدة لا أستحقُ منكَ أدنى اهتمام ..

جلسَ الشابُ عندَ ركبتيِّها ، وبدأ يتأملُ تضاريسَ وجهها المتعب ، ثم أمسكَ بيديِّها الناعمتيِّن قائلاً :

-أسمعتي بالأشباهِ الأربعين؟! فإنَّ لكلِّ شخصٍ منَّا أربعون شبيهاً ... وأنا الآن قد التقيتُ بواحدٍ منهم .

-ماذا ؟؟؟... ولكنك لاتبدو مثلي ! مظهرُكَ وملامحُكَ مختلفان عني كثيراً !!!... أنا فتاةٌ وأنتَ شاب ، فكيف لي أن أشبهكَ؟!

- الشبيهُ ليسَ بشبيهِ الملامحِ والمظهر ... إنما هو الشبيهُ بالوجعِ ومرارةِ القدر !!!

-أتعلم أنني الآن أشعرُ بالحنانِ والاهتمام لأولِ مرةٍ !!! لم أكن أعلم أنهُ شعورٌ جميلٌ لهذهِ الدرجة !! هذهِ هي أولُ مرةٍ يلامسُ فيها شخصٌ غريبٌ يدي .

-لستِ بغريبة ... أشعرُ وكأني قد عشتُ تفاصيلَ حياتكِ جميعَها .

ومسكَ " ورد " بكرسي " نور " وبدأ يدفعهُ في طريقٍ أكلَ اليأسُ نصفهُ ... أما النصفُ الآخر فينتظرُ أنوارَ القمر فأشعةُ الشمسِ أصبحت محرقةً ... والجو غائماً أيضاً.

وها هي جذوةٌ من لهبٍ تقطنُ في تلكَ الغيمةِ التي باتت تمطرُ عليهم .

- ماذا تريدينّ مني؟! ماذا فعلتُ لكِ ؟!
ألا تملكيِّنَ مشاعرَ الأمومةِ أبداً ؟! لمَ هذهِ القسوة ؟! أنا أيضاً بشرٌ مثلكم وفي قفصي الصدري يوجدُ قلب ينبض وليسَ كومةً من الحجارة .
-لا أريدُ أن أسمعَ منكِ أيةَ كلمة...فأنتِ فتاةٌ بلا فائدة ... والموتُ أفضلُ لكِ من العيش بيننا ... لقد تعبتُ من وجودكِ ... والتصبحَ بوجهكِ المقرف كل صباح ... ماذا فعلنا يا الله لتعاقبُنا بهذه الفتاةِ المقعدة ؟!
- أتمنى الرحيلَ أكثرَ منكِ ... ليت الله يأخذني الآن لعلّني أجد المودةَ والرحمة هناك في العالم الآخر .
صوتُ البابِ وهو يُفتح ... ابنُ عمِها يدخلُ إلى البيت .. إنه يسكنُ برفقتهم ، فعائلتهُ تسكنُ خارجَ المدينة ... وها هي (نور) وقد بدأ قلبُها يخفقُ بشدة ... وبدأت المشاعرُ بالتسللِ إلى فؤادِها ... فرؤيتهُ وهو يدخل ويخرج من المنزل...

كانَ الدواءَ الوحيد لجروحِها ... كثيراً ما كانت تقول لنفسها : لمَ أشعرُ هكذا .. هل أستحقُ الحُبَ أنا أيضاً يا الله؟؟!

وفجأة صوتُ أخيها يعلو مع زوجتهِ الآن .. وها قد زالَ خفقانُ الحب وتجمدت الدماءُ في عروقِها ... وها قد بدأ قلبُها يخفقُ خوفاً من ضربِ أخيها لها ... وها هو يخرجُ من غرفتهِ متجهاً نحوها :

-مابكِ أنتِ أيضاً ...لمَ تنظرين إليَّ هكذا ؟!

وبدأ الضربُ ينهال عليها من كلِّ جهة ... وهي تصرخ صرخةً تبعثرُ فوضى مشاعرٍ تسكنُها ...خرج ابنُ عمِها من غرفتهِ مسرعاً باتجاه (نور) وأمسك الأخ وأبعدهُ عنها ...خطفت (نور) نظراتٍ مليئة بالحب من ابنِ عمها ... نظراتٌ تكادُ تقتلُها فرحاً بهذا الموقف الذي يحدثُ أمامها الآن ..

-لمَ تضربُها بهذه الوحشية ... ألا تملكُ قلباً أنت؟!

-وأنتَ ما شأنُك بأختي ... اغرب عن وجهي قبل أن أبدأ بكَ أنتَ أيضاً ..

-تجرأ وارفع يدكَ فقط لترى ماذا سيحصلُ لك ؟!
من الآن فصاعداً لن أسمحَ لأحدٍ بضربِ (نور) ، كفاكم ظلماً لها... ماذنبُها ؟! أخبرني

- بالله عليك - إن كان ربَّ العبادِ هو من خلقها هكذا ... وإن كنتَ تريدُ إبراز الرجولة فليكن في ميدان آخر بعيد عن هنا مع رجلٍ مثلك وليس مع فتاةٍ ضعيفة لاحول لها ولاقوة ... أتظنُ نفسكَ رجُلاً بضربكِ لها ؟!

- سأعلمُكَ الأدبَ والاحترامَ اليوم .. لا تقلق ..
وها هو يهجمُ عليهِ ليضربهُ ويقومُ ابنُ عمِ نور بدفعهِ فيسقطُ أرضاً و الغضبُ قد استعمرَ وجههُ بالكامل .

- نووووور ... سأنهي حسابي معكِ لاحقاً ... لن أرحمكِ إن وقعتِ بينَ يدي يوماً ...

تذكري ذلكَ جيداً ... وحتى أنت أيُّها البطل سيأتيكَ الدور لا محالة .

يخرج الأخُ من البيت وبرفقتهِ ابتسامةٌ حقيرة وكأنهُ ينوي فعلَ شيء ... ويمشي أبنُ عمِها باتجاهِ غرفتهِ .

- انتظر قليلاً ... أريدُ أن أقولَ لكَ شيئاً ... شكراً من أعماقِ فؤادٍ مُتعبٍ لايعلمُ سبيلاً للراحة .

- لا أريدُ أن أراكِ تبكينَ مرةً أخرى ... أنا هنا وسأحميكِ منهم ماحييت .

مشاهدٌ لاتغيبُ عن بالها ... تشعرُ بكلِّ شيء وكأنهُ وجعُ البارحة ... حتى هذا الشخص الوحيد الذي كانَ يعطفُ عليها لم تتجرأ أن تخبرَ أحداً بأنها تحبهُ ... نعم .. تحبهُ ... فهي مثلها مثلَ باقي الفتيات من حقها أن تحبَ وتعشق ..

ولكنها وُضِعت في مجتمعٍ متخلفٍ لايهمهُ من المرأةِ سوى مظهرِها وشكلِها أمامَ الناس ... أما الروحُ فقد أصبحت في زمانِنا هامشاً لا أحد يهتمُ لنقائه .

- نور : ما أروعَ هذهِ البرودةَ ياورد ! لعلها تطفئ ما اشتعلَ في داخلي .
ليسَ ذنبي ... ليسَ ذنبي صدقني ... إنَّ الله هو من قدَّرَ خلقي هكذا منذُ ولادتي ... مقعدةٌ لا حيلةَ لي ... لا عينَ تراني جميلة ، ولا قلبَ يشعرُ بالشفقةِ والعطفِ لحالي ... لا يدَ تلامسُ يدي بحنان وتخبرُني أنني العوضُ له من الله ... ولا شفاهَ تهمسُ في أذُني : أنا بجانبكِ لاتحزني ؛ فأنتِ من أهمِ المخلوقاتِ عندي .
- ورد : لا تبكي أرجوكِ ... انظرِي إلى القمر ... كيف يبدو ؟
- نور : إنهُ يختفي خلفَ الغيومِ .
- ورد : أتعلمينّ لماذا ؟ احتراماً لجمالكِ ..
وها قد احمرت خدّاها خجلاً وكأنَّ ملاكاً قد قبَّلَها ...
بكلمةٍ واحدةٍ من (ورد) استطاعَ أن يزيحَ عن قلبِها القليلَ من أحزانِها ...

فلقد تراكمَ الغبارُ فوقَ عيونها التي تبدو وكأنَّها مرسومةٌ في لوحةٍ فنية ... بألوانٍ عجزت عن التعبيرَ عن رقتِها .

لا أحدَ في المنزل ... الهدوء يسكنُ الزوايا ... دخلَ الأخُ وكانَ يعلمُ أن نور قد بقيت لوحدها ..

وفي هذهِ المرةِ أيضاً كانَت ترافقه ابتسامةً حقيرة وكأنَّها تقول : ها قد جاء اليومُ المُنتظر منذُ تلكَ الحادثة التي جرت مع ابنِ عمهِ .

وقام بفتحِ بابِ غرفتِها ؛ ونور كانت تجلسُ على كرسيِّها المتحرك وهي تقرأُ كتاباً لتتعلمَ كيف تجذبُ ابن عمِها وتجعلهُ يقعُ في غرامِها .

- ها قد جاء وقتُ الحساب ... هل كنتِ تعتقدينَ أنَّ ذلك الأحمق سيحميكِ مدى الحياة ؟!

وقع الكتابُ من يَدَيْ نور خوفاً ... أصابتها الرجفةُ ، وسارعت تدعو خالقِها همساً : أنقذني يا رب ..

وها هو يخرجُ من غرفتِها ويقومُ بجلبِ الوقود ...

إنهُ يقومُ بملءِ جميعِ الأماكنِ بها .
- ماذا تفعل ؟! ماذا تريدُ أن تفعل بي ؟ أخبرني ؟!
حرامٌ عليك .. توقف ... أرجوكَ .. توقف ... اقتلني
كيفما شئت ولكن لا أريدُ أن أحترق .
وبدأت الدموعُ هي من تقومُ بحرقِ خديِّها وكأنَّ هذهِ
الدموع تتسابق : ياتُرى من منا سيتحررُ من وجهِها
أولاً ؟! تمسكُ بالكرسي وتحاولُ النهوض ...
ولكن العجزَ يكبِّلُها ... يقيدُها ... يمنعُها .
- لامفرَّ لكِ اليوم ... عزرائيلُ هنا ... جاءَ ليقبُضَ
هذهِ الروحُ التعيسة .
-حرامٌ عليك ... ماذا فعلتُ لكَ ؟! ارحمني .. أتوسلُ
إليك
وها هي تصرخُ بأعلى صوتِها : يا الله .. لماذا خلقتني
هكذا ؟! يا الله .. خفف عني الألم وخذ روحي
بسرعة ... ياالله .. قلبي مُتعب ولا طاقةَ بهِ لأيِّ شيءٍ
آخر

- اصرخي كيفما شئتِ ... لن يسمعكِ أحد ... سأتخلصُ منكِ اليوم ... فأنا حذرتُكِ في المرةِ الماضية .

صوتُ ضحكتهِ الحقيرة قد مزقت الطمأنينةَ في نفسِ (نور) ، والقهرُ قد حولَ حدائقَ قلبِها إلى مقابر ... الفرحُ كان شهيداً ... الحبُّ كان شهيداً ... حتى الأملُ أصبحَ شهيداً ... وأمّا الحزنُ وإخوانهُ فهم الأحياء فقط ... بل ليسوا أحياءً إنما هم الخالدون .

مسكَ أخوها بعودِ الكبريت وأشعلهُ ... ووقفَ أمام بابِ الغرفة ... عودُ الكبريت قد تساقطَ من بين يديْهِ ، وقام بإغلاق الباب ... وبدأت النيرانُ تشتعل . و (نور) تلطمُ بكلتيْ يديْها النوافذ ... فقد جاعت حنجرتُها للكلام ... تفتحُ فمها ولاتستطيعُ الكلام ... تتخبطُ يميناً و يساراً والنيرانُ تقتربُ منها ... وفي أعينها كأن النجومَ تصارعُ نفسها فلا نجمةٌ منها تريدُ البقاء ...

وكيفَ ستشتهي أن تبقى والظلمُ قد خلعَ عنها أثوابَ السعادة جميعَها ... بدأتِ النارُ تشوهُ جسدها ... تفتكُ بها ... تلتهمُ جزءاً من هنا وجزءاً من هناك .. كأنها قد خرجت من الجحيمِ للتوِّ .. هكذا بدا مظهرُها ... وتنهيدةٌ خرجت من جوفِها ، لو سمعها الشيطانُ لبكى ... تنهيدةٌ قد أخرجت الروحَ بصحبتِها ... نعم .. لقد ماتت وأصبحت جثة ... وحتى جثتُها لم تكن عادية ... لم تكن مجردَ جثة ... بل جثةً من رماد !!!

بعد مجيء الجميع و دخول الشرطة إلى المنزل وهي تتساءل عن ملابسات الحادث : كيفَ ماتت ؟ ! وما أسبابُ الحريق ؟

-أمي من فعلت ذلك ... هي من قامت بإحراقِها ... وزوجتي تشهدُ على ذلك ... لأنها عندما دخلت المنزل لم يكن يوجدُ فيه أحدٌ غيرهما ... ورأت بأمِّ عينها كيف قامت بإغلاقِ الأبوابِ عليها ...

لقد قتلت أُختي المسكينة !! ... ماذنبُها ؟ أخبريني؟
حتى و إن كانت فتاةً مقعدة لا يحقُ لكِ أن تقتُليها ...
كانت كالملاكِ بيننا .
مشاعرُ الصدمةِ قد حفرت آثارها على وجهِ الأم بعد
هذا الكلامِ من ابنها ... هذا الابنُ نفسهُ الذي كانت
تفضلهُ على ابنتِها نور ... هذا الابنُ الذي أبدعَ الآن
في التمثيل ...
بدأت تتلعثمُ وعجزَ الكلامُ عن وصالِها كعجزِ
(نور) عن المشي ... كانت أسيرةً لأفكارِها
الحمقاء ... الصبيُّ لم يكن يوماً أفضل أو أعلى
مرتبةً من الفتاة ولكنَّ هذا أحدُ أمراضِ
مجتمعاتِنا ...
في تلك اللحظة انتابها شعورُ الاحتقارِ لنفسِها ..
وتساقطت من عينِها دمعةُ حزنٍ على خسارتِها
لنور ... ولكنّها بقيت عالقة على خدِها .
وكيفَ تسقط والغدرُ جاءها من ولدِها ؟!

- نور ... ابنتي ... التي كنتُ دائماً أشتمُها وأقذفُها بكلماتٍ تعجزُ الجبالُ عن حملِها ... ومع ذلك لم تجرحني يوماً ... لم تجرحني بأيةِ كلمةٍ حتى لو كانت صغيرة كثقبِ الإبرة ... وأنتَ الذي وضعتُكَ كالتاجِ على قلبي عمراً ... قد مزقتَ جميعَ أوردتي في لحظة !!
لن أطلبَ السماحَ منكِ يا ابنتي فأنا لا أستحقُ السماحَ ... وأما أنت ؛ فسأصفحُ عنكَ ياولدي مع أنكَ لاتستحقُ السماح !

رفعت (نور) رأسها ونظرت مباشرةً في عيونِ (ورد) ، وخصلةٌ من شعرِها تتحسسُ ملامحَ وجهِها ... لم يبالي (ورد) فهو ليسَ معتاداً أن يتأملَ أحدٌ تفاصيلَ وجههِ .

- نور : خراب .

- ورد : ماذا قلتِ؟

- نور : خرابٌ باتَ يحتضنُني ، وقلبٌ يحتاجُ إلى دمٍ جديد لكي ينبضَ مرةً أخرى ...

أتصدقُ وأنا بهذهِ الحالة ولا أستطيع الوقوفَ حتى ... كان أبي يضربُني كلما دخلَ إلى البيتِ وهو غاضب .. وكان أخي يضربُني كلما تشاجرَ مع زوجتهِ ... حتى أمي كانت تضربُني كلما ضاقت بها الدنيا ... وعندما كنتُ أضعُ رأسي علي وسادتي ليلاً لأغفو ؛ كنتُ أغرق بدموعي حزناً ... كنتُ أرى في منامي فارسَ أحلامي وهو يمتطي حصاناً أبيضَ ، يأتي باتجاهي .. أحلم بهذا الفارس مثلي مثل باقي الفتيات ... وقبل أن يقترب مني ليمسك يدي بيده ، أصحو على ضربٍ من أمي على ظهري لكي أنهضَ من حلمي .. وأتذكر بأنني لستُ كغيري من الفتيات ... فلماذا أحلم ؟! وأيُّ شخصٍ سيقبلُ بي والعجزُ يسكنُني ؟!

- ورد : أرجوكِ لا تبكي ... لا أحتملُ رؤيةَ الدموعِ وخاصةً من فتاةٍ بطيبتكِ ... أرجوكِ لا أريدُ أن أرى الحزنَ يستوطنُ هذا الوجهَ البريء .

وكيفَ لدموعِها أن تتوقف وقد أصابها من الظلمِ لوعةٌ لا مفرَ منها ... لا مفرَ من عذابٍ كهذا ... وكيفَ تريدُ منها يا (ورد) أن تتوقفَ عن البكاء وقد كانت في سجنٍ يحوي نموراً متعطشةً للدماء وجاءَ الحكمُ عليها بالمؤبد مع أوجاعٍ شاقة ! وكيف تريدُ منها أن تتوقف والوجعُ لم يتوقف يوماً عن النخرِ في عظامِها ! وياليتها قد عاشت كغيرها من الفتيات .... ولكن ، دائماً للقدرِ كلمةٌ أخرى .

- ورد : أودُ أن أرى ابتسامةً جميلةً منكِ كجمالِ هذين الخدينِ .

- نور : لقد حذفت هذه الكلمة من قاموس حياتي ، فكيف لمثلي أن يبتسم و هذا العالمُ كالسم من حولِي ؟! تقولُ في نفسها : ليتكَ تعلمُ يا (ورد) أنني قد متُّ حرقاً ... وكيفَ لي أن أخبرَكَ بأنَّكَ ميتٌ مثلي ؟! و بأنَّكَ مجردُ روحٍ هنا ... فأنتَ مازلتَ لا تعلمُ أينَ أنتَ ؟ و إلى أينَ تسير ؟ ياتُرى ما الذي تخفيهِ أنتَ أيضاً ؟!

- ورد : لماذا حلَّ السكوتُ عليكِ ضيفاً ؟
- نور : لاشيء .. مجردُ أفكارٍ تقومُ بزيارتي في كلِّ ثانية ... وأنتَ مابك ؟ لمَ اليأسُ لايودُ الرحيلَ عن وجهِكَ؟
- ورد : إنَّ الشخصَ الذي تضحيِّنَ من أجلهِ يانور ... تضحيِّنَ بكل ماتملكين ... سيأتي يومٌ ويخبرُكِ أنه لم يطلب منكَ كلَّ هذا ... لم يطلب أن تفعلي شيئاً من أجله ... وسيكونُ هو على حق ... ويالليتني لم أفعل أمراً هي لم تطلبهُ مني ... وحتى أنها لم تكن تفرح بأنني فعلتُ ذلك ... ويالليتني لم أفعل ذلك .
ولقد أدركت (نور) من كلامِ (ورد) أنَّ الجليدَ بدأ يذوبُ من حولهِ...أما هو فكانَ يغرقُ فقط ...
وعلى الرغمِ من إجادته للحزن إلا أنهُ لا يجيدُ الصبرَ كما ينبغي ..ما هذهِ القسوة التي كانَ يعيشُها (ورد) حتى جعلتهُ يُخرجُ ما في داخلهِ مباشرةً من دونِ أن يرمش ...

إنَّه على حق ؛ فهو يشبهُني ويشبهُني جداً .
- مَن ذلك الشابُ الذي يدفعُ بكرسي (نور) ؟
- إنهُ (ورد) آخرُ الوافدينّ إلى هنا .
- لكنَّ هذا الشخصَ كانَ في الدنيا جالساً على كرسي متحرك ! فكيفَ يمشي على قدمَيهِ الآن ؟
- لأنَّ روحهُ لم تتأثر بشللهِ ، أما (نور) فقد ولِدت وهي مُقعدة ... وهكذا قد جاءتنا الأوامر .
- ولكن ، ألا يتذكر أنهُ كانَ مُقعداً في حياته ؟
- إنهُ لا يعلم أين هو الآن حتى ... يظنُّ نفسهُ ما زالَ في الدنيا ... ولكنهُ سيعلمُ عما قريب ..
- هيا بنا نعود ونلتحق بباقي الملائكة فلدينا أعمالٌ كثيرة نقومُ بها .
سوادٌ داكنٌ قد غطى المكان ... ليبدو وكأنهُ مدينةُ أشباح ... نسماتٌ ليليةٌ باردة ... والربيعُ قد استعار ثوبَ اليأسِ من الخريف ولم يعد كما كان ... لقد تأخرَ هذهِ المرةِ في العودة ... تأخرَ وتأخرَ كثيراً .

- نور : كنتُ أتساءلُ دائماً عن شعور المرء كيف يبدو وهو قادرٌ على أن يمشي ..

- ورد : المرءُ فينا يا (نور) لا يحمدُ الله على النعمِ التي يعيشُ فيها ... دائماً نشتكي ... دائماً نشعرُ بأن هناكَ شيئاً ينقصُ أجسادَنا وإن كانت أجسادُنا سليمة ! نتهمُ الأرواحَ بالنقص ... هذا العالم الذي نعيشُ فيه عبارة عن سراب ... والسرابُ يأتي ويتلاشى فجأة ... ولكنَّ سرابَ عالمِنا سيبقى قليلاً ولكنه في النهاية سيتلاشى ... وسنختفي معهُ جميعُنا .

- نور : هل ستقومُ بإقناعي بأنكَ لم تشتكِ النقصَ يوماً ؟!

- ورد : كلُّ الأشخاصِ في عالمِنا الذينَ تحدثتُ عنهم قد اختصروا طريقهم من خلالي ... فكنتُ أكثرهم شكوى و أكثرهم حرماناً ... فليسَ من الصعبِ أن يكونَ العجزُ في أحدِ أعضاءِ الجسد ؛ ...

بل الأصعب أن تكونَ شخصاً كاملاً والعجزُ قد أصابَ الفؤاد !

- نور : أن أكونَ عاجزةَ الفؤادِ مثلَك خيرٌ من أن أكون عاجزةً عن الحركة ..

فلسفةٌ عاشَ بها (ورد) ، وجهنمٌ قد أحرقَت ماتبقى من حيلتهِ ... ولم تكتفِ (نور) بتأمُلِ ملامحهِ ...

إنهُ ثاني شخص يتحدثُ معها بلهجةٍ مُفعمةٍ بالحنية ... بلهجةِ صديقٍ يودُ سعادتها ... وكأنَّ ابن عمها هو مَن يقف أمامها مرةً ثانية .

لم أعد أخشى عيباً فلستُ من أصحابِ العيوب ...

رباااه لا تدع قلبي ينزفُ مجدداً ... رباااه ، لن أدعَ فؤادي يشتكي نقصاً ... فقد تألمتُ في الحياة الدُنيا بما يكفي ... لن أدعَ الألمَ يتمكنُ من مباهجِ مُقلتي .

هذا ما اتخذته (نور) من قرار ... فَورد قد تركَ أثرهُ في داخِلها ... إنه يتركُ أثراً أينما يذهب ...

ولكنهُ عجزَ عن تركِ أثرٍ بسيط في قلبِ محبوبتهِ !
- نور : هذا هو المكان الذي كنتُ أريدُ الذهابَ إليه ... أشكرُكَ على كلِّ شيء ... أشكرُكَ من أعماقِ قلبي .
- ورد : لا شكرَ على واجب ... فأنا شخصٌ محظوظ لأنيِّ قد التقيتُ بكِ .
- نور : أنا من هي المحظوظة يا ورد ... لقد رأيتُ من خلالكَ العالمَ بصورةٍ مختلفة ... بصورةٍ أخرى لا تشبهُ تلكَ الصورةُ القبيحة التي كنتُ أتصورُها دائماً ... لاتبخل عليَّ بزيارة ، اتفقنا ؟!
- ورد : كلما أُتيحت ليَ الفرصة سآتي .. أعدُكِ بذلك ... وداعاً ..
- نور : وداعاً ... أيُّها القلب الطاهر والنبيل .
وها قد بدأ (ورد) يمشي ، وأكملَ طريقهُ .. وها قد عادَ وحيداً كما كان ... ينظرُ إلى خلفهِ ... ودمعةٌ خائنةٌ قد سقطت من عينهِ ... إنهُ كطفلٍ صغير لا يحتملُ مفارقةَ أحد ...

ليتَ الصورة التي تحسنت في عيونكِ يا (نور)
تتحسّنُ قليلاً في عيونِ (ورد) !
فمن يراهُ يظنُّ أنهُ أصبحَ مجنوناً من كثرةِ كلامهِ مع نفسهِ ... حتى كلماتهُ أصبحت غيرَ مفهومة وكأنّهُ يشكو من التوحد !
- ورد : اشتقتُ لكِ يا (ريتاج) لمَ لا أراكِ ؟ كنتُ البارحةَ بجانبكِ ، فأينَ أنتِ الآن ؟ !! ليتَ الله يبادلُ بين قلبكِ وقلبي لكي تشعري بهذا الذي كنتِ تظنينهُ مُدّعياً ! وها هو القمرُ قد غفا على رمشكِ ، و أنا قد نام الشوكُ على مدمَعي ... أغفو وقلبي ليسَ لديهِ حيلةٌ لإيقاظي مرةً أخرى ... كنتُ أسافرُ برفقةِ أحزاني ... أشتهي الموتَ والموتُ لا يشتهي أخذي ... وأبتسمُ للقدرِ والنيرانُ تأكلُ أحشائي ... كنتُ أتساءلُ دائماً : لماذا الأسى يقصدُني ؟ فكلِّ شخصٍ تسكنُ في داخلهِ روحٌ واحدة فلماذا كانَت تسكنُني ألفُ روح ... لقد علمت الآن ...

لكي يتعذبوا مرةً وأتعذبَ أنا ألف مرة !! .
وفجأةً أمسكَتْ بيدهِ امرأةً تُناهزُ الستيْنَ من عمرِها .
- سارة : إنَّكَ سالم أليسَ كذلكَ ؟ إنَّكَ ولدي سالم ... لقد اشتقتُ لكَ كثيراً ياقرةَ عيني .
وها هي تحتضنُ (ورد) وتقبّلهُ من كلِّ مكان والدموعُ من مقلتيها تسيلُ ... تقبّلهُ بلهفةٍ لا يتصورها أيُّ عقل ... تقبلهُ تارةً ، وتشتمُ رائحتهُ تارةً أخرى ... كامرأةٍ فقدت جميعَ حواسِها وتعافت من جديد .
- ورد : لستُ بسالمٍ ياخالتِي ... أُدعى (ورد) .
وبعدَ هاتين الكلمتيْن من (ورد) ، ها هي سارة تسقطُ أرضاً ... ويسقطُ معها ذلك الأمل الذي كان يقومُ بزيارتِها كلما رأت وافداً جديداً في هذا العالم ... أسرعَ (ورد) وجلسَ على ركبتيْهِ ووضعَ يدهُ أسفلَ رأسِها .

- ورد : ماذا أصابها ياتُرى ؟ لمَ كلُّ الأشخاصِ الذي أقابلهم تبدو أجسادهم باردة ؟!
شكوكٌ تراودُ قلبهُ كل حين .. تُرى أين أنا ؟ ومن هم هؤلاء الأشخاص الأغراب الذينَ ألتقي بهم ؟! .
- أمي .. أرجوكِ لا تتركيني وحيداً ... لا أقدرُ على العيشِ بمفردي .
- ها أنا أصارعُ الموتَ من أجلك ... لن أسمحَ لهُ بأخذي منك ... أعدُكَ بذلك .
تمسحُ بيديْها وجهَ ولدِها ... وتشفي بحنانِ أصابعِها ما انكسرَ من عزيمتهِ ... وتتساءل : إن ذهبتُ وتركتهُ خلفي ماذا سيحلُ بهِ ؟! أو ماذا سيحلُ بي ؟! إنهُ ولدي الوحيد .. إنهُ الهواءُ الذي أقومُ باستنشاقهِ .
- سالم .. قم ياولدي .. لنترك والدتك تأخذُ قسطاً من الراحة .
- ولكنّي يا أبي لا أودُ مفارقتها !
- لاتقلق لن نذهب إلى المنزل ...

سنجلسُ في الخارج أمامَ بابِ الغرفة .
- أنصت إلى أبيْكَ ياولدي واخرج معهُ فأنا بخير ... لا تقلق
- أنتِ تأمُرينَ يا أمي ... ولكن ، لاتنسي وعدكِ لي ! وها هي سارة تقومُ بإغلاقِ أعيُنها بعدِ أخذِها لصورةٍ أخيرة من فلذةِ كبدِها .
- أمي ... أمي ... هل غفوتِ ؟!
- لقد نامت ياولدي ، فهي متعبة . دعنا نخرج ..
- لا يا أبي لم تنم ، أشعرُ وكأنها قد خانت الوعد ! أمسكَ سالم بيدِ أمهِ وشعرَ بتوقفِ نبضِها ... وبدأ يصرخ وهو يبكي ... يصرخ ويبكي ..
- أخبرني يا أبي ألم تستطع المحافظةَ على وعدِها لي لبضعِ دقائق ! كانت تخبرُني دائماً بأنني فلذةُ كبدِها ... لمَ رحلت وجعلت من هذا الكبدِ عديمَ الفائدة ؟! عودي أرجوكِ .... فقد غرستِ في قلبي جُرحاً سأعيشُ معهُ طوال عمري ...

عودي أرجوكِ ... فجسدي من الآن أصبحَ ثقيلاً والجروحُ ليست أنتِ لكي تشفقَ على حالتي ... عودي أرجوكِ ... فمازلتُ طفلاً ولا أريدُ العيشَ يتيماً ... فيا صاحبةَ الوعدِ أينَ رحلتِ ؟! .

وها هي سارة تفتحُ أعيُنها لتلبي نداءَ ولدِها ولكن في عالمٍ آخر مع شخصٍ آخر فالميتُ لا يعود ... تفتحُ أعيُنها وكأنها تقبّلُ ورد بهذهِ الأعين مرةً أخرى وكأنها تشتمّ رائحتهُ بلمساتِ يديْها مرةً أخرى .

- سارة : أسفةٌ ياولدي .... ولكنني كلما رأيتُ شاباً أظنّهُ سالم ... لستُ بمجنونةٍ ياولدي ... ولكنَ الشوقَ رجلٌ مجنون !

- ورد : لا بأس ياخالتي ... أين هو الآن لكي أصطحبُكِ إليه؟

- سارة : إنهُ لأمرٌ صعب أن ألتقي بهِ قبلَ وفاتهِ .

- ورد : لماذا ؟ كيفَ ذلك ؟!! لا أفهمُ شيئاً مماتقولين !

- سارة : نحن مجردُ أرواحٍ هنا ... ولا أستطيعُ أن أتكلمَ معهُ وأحتضنهُ حتى يصبحَ روحاً هنا ويغادرُ الدُنيا ميتاً مثلنا

- ورد : ماذا تقصدينْ ؟!!!

- سارة : أنتَ في عالمِ البرزخِ ياولدي ... عالمِ الأرواح .

نهضَ ورد و وضعَ يدهُ على رأسهِ :

- ورد : لا أريدُ الموت ... لم أشبع من ريتاج بعد .. لم أخبرها عن مدى حبي لها ... أريدُ أن أعودَ إلى الدنيا ولو لثوانٍ معدودة ... ماذا حلَّ بريتاج ياتُرى ؟؟ أهيَ تبكي الآن ؟ ! لا أصدقُ ما حصل ... كيفَ ذلك؟! لم أكن أشتكي من أيّ مرض !

- سارة : إن كنتَ تريدُ أن تراها أغلق عينيكَ فقط وستجدُ نفسكَ بجوارِها ... ولكن هي لن تراك ولن تستطيعَ سماعَ صوتك .

وها قد تلاشت روحُ (ورد) أمامَ (سارة) .

لقد غادرَ لكي يلتقي بريتاج ... لكي يلتقي بمن كانت ولا تزال وستبقى إلى الأبد أنفاسهُ المُريحة رغم رئتيْهِ الملتهبتين ... أما (سارة) فقد عادت إلى قبرها لكي تشتمَّ ذلكَ المعطف من رائحةِ ابنها (سالم) لأنها قد كتبت في وصيِّتها قبل الوفاة : أريدُ شيئاً من رائحةِ كبدي سالم وأن تضعوهُ بجوارِ قلبي ... عادت إلى قبرِها وكأنّ قلبها يُشعِرها بأن سالم سيقومُ بزيارتِها اليوم ... وها هو واقفٌ بجوارِها ... ويقبِلُ حوافَ قبرِها كشخصٍ قد أتعبهُ الشوق وهدَّه الحنين .

- سالم : أمي ... هل أنتِ بخيرٍ ياتُرى في ذاك العالم ؟! وهل يقطفُ الشوقُ من عينيكِ الدموعَ كما ينتزعُها من عيوني ؟! لأنني أتألمُ في كلِّ مرةٍ أبكي فيها . أمي ... كم كنتِ تناديننني : يافلِذةَ كبدي ... حتى الكبدَ سيصبحُ عديمُ الفائدة بعدَ وفاتي ... وأنتِ أغلى من ذلك .

أتذكَّرُ ذلك المشهدَ جيداً ونحنُ في المشفى ... أتذكرُ كلُ كلمةٍ قلتِها ... لكن اليوم أودُ أن أخبرُكِ أنني أصبحتُ في الخامسةِ والعشرينَ من عمري ...
ومضى على وفاتكِ خمسةَ عشرَ عاماً ...
كلُّ سنةٍ كانت تمضي وعزاؤكِ في شوارعِ قلبي يتشبثُ بالأرضِ أكثر ... ومساميرُ خيمتهِ تنغرسُ فيَّ أكثر ...أمي ... لا أحدَ يملأ مكانكِ في قلبي ...
وخيمةُ العزاءِ لا تحوي إلا دموعي ... أنا من حملتُ تابوتَ جثمانكِ على كتفي ... هذا التابوتُ نفسهُ الذي تركَ ندوباً في نفسي لن تزول ... أنا من قمتُ بحفرِ الترابِ بإبرة حفرتُها ذرّةً تلو الأخرى ... لكي تشبعَ نظراتُ الوداعِ منكِ ... كوني بخير من أجلي ... أحبُكِ ...
و (سارة) في قبرها والمعطفُ بينَ أسنانِها تبكي وتشدُ الوثاقَ عليِّها .

أما (ورد) ، فقد فتحَ عينهُ ليرى اللباسَ الأسودَ قد غطى جسمَ ريتاج بالكامل ... ليرى الدموعَ قد أصبحت ورداً آخرَ لها .

أنفاسُها أصبحت ثقيلةً ... وعيناها قد ذبُلت وكأنَّها لم تُسقَ اليوم ... وكيف ستسقى والساقي قد مات ؟! ... والسوادُ الذي باتَ يستغيثُ في أسفلَ أعينِها كانَ دليلاً على عدمِ نومها ليلةِ البارحة ... وكيفَ تنامُ وأمانُ قلبِها قد مات ؟! وها هي تبدأُ الكلام وكأنَّها تشعرُ بأنَّ ورد موجودٌ هنا بجانبِها يسمعُ ما ستقول ...

- ريتاج : كنتَ قمراً لقلبي وأنا كنتُ السوادُ الذي يحيطُ بكَ ... كنتَ تسعى جاهداً لإسعادي وأنا كنتُ مشغولةً بوضعِ الحدودِ بيننا ...لا أعلم ... حقاً لا أعلم كيفَ كنتَ تشعرُ بالسعادةِ معي وأنا لم أعطِ قلبَكَ حقهُ ؟! لا أصدقَ أنك قد ضحيّتَ بنفسكَ من أجلي ؟ ...إلى أية درجةٍ من مشاعرِ الحبِ قد وصلتَ تجاهي ؟ ! ...

أخبروني - عندما كنتُ تلميذةً في المدرسة -
أنَّ الكون هو أوسعُ شيءٍ على الإطلاق ...لكي أعلم
فيما بعد أنهم كانوا يكذبون عليّ ؛ فقلبُكَ كانَ هو
الأوسع ... كانَ يحتوي قلبي ومايحتوي ... أتساءلُ :
هل أشبهُ تلكَ التجاربِ المريرةِ التي واجهتكَ بكلِ
حزنٍ وهمّ ؟! ...أم أنني كنتُ أحسن بقليل ؟! أم
كنتُ أبشعَ بكثير ؟! أتعجبُ من نفسي كيفَ لم
أمت خلفكَ مباشرةً ؟! ... كيفَ بقيتُ حيةً إلى هذا
اليوم ؟!وأنت من كنتَ لهذا القلبِ حياةً !
روحُ (ورد) تبكي ... كانت تذرفُ الدموع
مع كلِّ كلمةٍ تخرج من فمِ (ريتاج) .
- ورد : أودُ أن أخبرُكِ أمراً ... أنسى نفسي ولا
أنساكِ ... مازلتُ أحتفظُ بوعدي لكِ هنا في قلبي ...
أراكِ في أرجاءِ المكان دائماً ... وكأنَّكِ لؤلؤةٌ قد هربت
من صدفِها وأنا كنتُ المسجونَ خلفَ القضبان ...
مشاعري تحكمُني ... والغيرةُ تعذبُني ...

وكنتُ هشاً لا أستطيعُ الكلام ... كنتُ أودُ أن أخبرَكِ كم مرةً قد تمزقَ الفؤاد وأن الدموعَ باتتَ تخجل من زيارةِ عيني ...

لا أعلمُ كيفَ رحلتِ ، ولكنني أعلمُ أنَّ ألمَ العشقِ صعبٌ وأنا لم أعد أحتمل ... فماذا أفعل ؟! وأنتِ قد جعلتِ من قلبهِ موطناً للفرح وجعلتِ من قلبي مقبرةً لأوجاعكِ ! وجعلتِ من العشقِ نصيباً لغيري ..أمَّا نصيبي فكانَ القليلَ من فرحكِ ... كنتِ تشعرينَ بالوجع من كلامهِ وها أنا أشعرُ بلوعةِ الجمرِ من كلامكِ ..

وها هو (ورد) قد غادرَ مرةً أخرى يحملُ في أعماقه عذابَ الماضي ... لم يعد يهتمّ إن بقي الحزنُ يرافقهُ أو يفارقه ... فالفتاةُ الوحيدة التي أحبها بجنون قد بقيت في الدُنيا وهو من رحل !

- ورد : ليتكِ عشقتِ قلبي مثلما كنتُ أعشقُكِ ... وياليتَ الجنون كان يحيطُ بكِ ...

مثلما كنتُ أغرقُ فيهِ ... وياليتَ النارَ ... لا أستطع أن أكمل ... أخشى أن تصيبَكِ شرارةٌ مما أصابني؛ فتكملي السيرَ على الطريق و أوردةُ أرجلكِ ممزقة !

وضعت (سارة) يدها على كتفِ (ورد) وجلست بجانبهِ

- سارة : الحبُ من جهةٍ واحدة يجعلُكَ تشعرُ بسعادةٍ مؤقتة ، وهذهِ السعادةُ تزول بل تتدمر نتيجة اللامبالاة من الطرفِ الآخر ..

- ورد : وياليتَ هذه السعادةَ المؤقتة كانت تأخذُ الحبَ بطريقها ، فماذا استفادَ قلبي المسكينُ منهُ ؟! أتمنى العودةَ لكي أعطي (ريتاج) حقّها من الحب أكثر ... مثلما تتمنين العودة لرؤيةِ ولدكِ سالم .

- سارة : ماذا بوسعي أن أفعل يا (ورد) ؟ فولدي سااالم لا يفارقُ قبري حتى ... يبكي ويطلبُ رؤيتي لثوانٍ فقط وأنا أقفُ أمامهُ وأصرخ وياليتهُ يسمعني ... وياليتَ الله يعيدُ روحي إلى جسدي ...

لبضعِ ساعاتٍ أو لبضعِ دقائق أو ثوانٍ معدودة فقط ... فأنا راضية ... فكلما أراهُ بهذا المشهد أحتقرُ نفسي ... وأخبرها أنني لا أستحقُ أن أكونَ أماً لهُ ... ولكنني الآن أدعو الله وأتمنى أن يلتقي بفتاةٍ تحملُ صفاتي نفسَها ، ويسكنُ بقلبها حنانٌ كحناني لكي يعشقها ويراني بها وينسى قليلاً مما يعانيهِ الآن ..

- ورد : لا تقلقي يا أمي واجعلي الأمل يغطي اليأسَ الذي يسكنُكِ ... والآن أود أن أرحلَ .. فعالمُ البرزخِ كبيير والحياةُ هنا طويلة ويجب أن أتعايشَ معها ، وأعتادَ على ذلك ... كوني بخير وعلى ثقةٍ تامة أنكِ ستلتقينَ به قريباً ..

وها قد تركها (ورد) وغادر لتعودَ سارة وتلامسَ يد سالم بروحها ... وتخبرهُ : كن بخير إلى ذلك الوقت الذي يشاء فيه ربُ العباد ونلتقي ..

وأما (ورد) فقد بدأَ يتمتمُ في جوفهِ :

-ورد : كيفَ أعطي الشيء الذي أفتقدهُ لكلِّ شخصٍ ألتقي بهِ ؟! كيفَ أعطي من حولي الثقةَ والأمل وأنا أخشى مجردَ التفكير بذلكَ اليوم الذي ستبادلُني فيه (ريتاج) مشاعر المحبة نفسها ... لقد غادرت الروحُ جسدي ولم أرتوِي من بريقِ عينيْها بما يكفي ... كيفَ لي أن أمضي قُدماً في حبها وخطواتي السابقة لم تترك أثراً ؟!.

ومن جهةٍ أخرى ، كانت (ريتاج) جالسةً على السرير وهي تخشى النظرَ إلى صورةِ (ورد) ، هذه الصورة التي باتَت لا تُفارقُ يديْها .

- ريتاج : ليتكَ تعود لأخبرَكَ أنكَ الوحيد الذي تستحقُ الحب ! وياليتَ الشمسَ تشرقُ غداً لأراكَ بجانبي وعيناكَ تنظُران إليَّ بنفسِ تلكَ النظراتِ الحادة المفعمةِ بالحنانِ والود ... إنني نادمة وياليتَ الندمَ ينفعُ الآن ! ...فكم كنتُ عمياءَ عن حبكِ لي ! وكم كنتُ غبية !

وها هي تضعُ رأسها على الوسادة ، وصورةُ (ورد) تغفو فوق حضنها الدافئ والدموعُ بااتت تقيدُها وتمنعُها من العودةِ إلى خطواتِ (ورد) السابقة لكي تقبِّل آثار أقدامهِ وها هي تنهضُ من سريرها بسرعةٍ وبلهفةٍ جنونية وتجلس على قدميْها أمامَ كرسي (ورد) المتحرك ...

إنها تقبِّلُ كلَّ جزءٍ منهُ بشوق ... تقبِّلهُ بانكسارٍ لن يُجبر

- ريتاااج : كنتَ تجلسُ هنا البارحة وعينُك تراقبُني وتتبعُني أينما ذهبت ... كنتَ لا تستطيعُ الكلام ولكنني كنتُ قادرةً على سماعِ ملامحَ وجهِكَ جيداً ... أرجوكَ أن تعود ... أتوسلُ إليكَ أن تعود ... لكي أقبِّلَ أقدامَكَ وأخبرَكَ يا (ورد) أنكَ تاجٌ يعلو رأسي ... أرجوك أن تسامحيني ... فلقد قسوتَ بعقابِكَ لي كثيراً ... ولكنني أستحقُ أكثرَ من ذلك ...

وإن بكيتُ دماً لآخرِ يومٍ في عمري فلن أتألم مثلما كنتَ تتألم أنت ! .

وتسقطُ (ريتاج) أرضاً .. وتسقطُ معها صورةُ (ورد) من بين يديْها .

وبدأت تلكَ الغصةُ المتكررة تخوضِ معاركِها المُعتادة في قلبِ (ورد) لكي يشعرَ بنفسِ الوجع وكأنهُ قد علمَ بأنَّ مكروهاً قد وقع ... ولكن في هذهِ المرةِ تحديداً قد استوطنت الغصةُ أعماقَ أعماقَ فؤادهِ .

أيامٌ باردةٌ وأحزانٌ تأتي ولا تذهب ، تعلمُ القدومَ فقط ولاتهتمُ بالرحيل ... لا بدَّ للوحدةِ أن تأخذ جزءاً أو حيّزاً من قلبِ كلِّ شخصٍ منا ... وهناكَ أشخاصٌ يعيشونَ بيننا قد استعارت الوحدة أجسادهم بالكامل .

لايصدقون متى يحلُ الليل و تغيبُ الشمسُ البائسة عن الأنظار ! ...

ليضعوا رؤوسهم على الوسادة فتغفوَ قلوبهم قبلَ عيونهم أو إن صحَ التعبير : لتبكي قلوبُهم قبلَ عيونهم ! .

قنبلةٌ موقوتةٌ قد حُشرت بينَ جراحهِ التسعةِ والعشرين ... وعندَ الجرح الذي يليه أصبحت القنبلةُ قريبةً من الانفجار ... والجرحُ الواحدُ والثلاثون قد أطاحَ بهِ إلى عالمِ الأرواح ... ولكن لم يختلف عليه شيء .. فمازالت أحزانُ (ورد) تسافرُ ككوكبٍ وحيدٍ في الفضاء الواسع ؛ لا تسمعُ شيئاً ولا تشعرُ بأيِّ شيء ... لم يكن يريدُ سريراً خيوطهُ من حرير ... بل يريدُ فقط أن يغفو والطمأنينةُ تبدِّدُ الخوفَ في داخلهِ ... حتى لو نامَ في حفرةٍ من حُفرِ القمر ! .

وريتاااج في المشفى ... ممددةٌ على سريرٍ يُقال إنهُ أبيضُ اللون ، ولكنَ السواد الذي باتت تراهُ أينما نظرت قد عكسَ عليه جميع الألوان ...

فلا بياضَ من بعدِ رحيلِكَ يا (ورد) !
الممرضاتُ من حولِها قد حجبوا عنها رؤيةَ الشمسِ من النافذة ... وهي تقوم بالالتفات برأسِها شرقاً وغرباً تبحثُ بينهم عن (وردِ) قلبِها ، فهي لا تريدُ أحداً منهم سواه !
فأنتم النقصُ مهما فعلتم ... وهو الكمالُ الوحيدُ لفؤادِها.
الطبيبُ المختص قد دخلَ إلى الغرفة ... نظرت (ريتاج) مباشرةً في عينهِ ... وقالت لهُ بلهجةٍ تحملُ بينَ ثناياها أشواكاً منزوعةً من صلبِ آلامها : أينَ ورد ؟! لقد اشتقتُ إليه ... أهو بخير ؟!
عن أيِّ فقيدٍ تسألين يا (ريتاج) ؟!
عن قلبٍ اعتقلتِ منهُ جميعَ النجوم ! عن حرمانكِ لطيرِ فؤادي من ملامسةِ الغيوم ! فالجروحُ التي أصابتني من سهامِ كلامكِ وقمتِ بغرسِها جيداً في أعضاءِ جسدي ... اطمئني .. مازالت بخير ..

وكم يشعرونَ بالسعادةِ معي !
فما هذهِ الوصيِّةُ التي لعنت جميعَ أشيائي ولم تؤثر بهم ؟! ... لقد فرقوا الروح عن الجسد ومع ذلكَ لا يرغبونَ بمفارقتي ! فمن أين أتيتِ بهم ؟! وكم كانوا مخلصينَ لكِ ؟! ... سؤالٌ وحيدٌ يراودُني الآن : لمَ ترفضينَ الاعترافَ بحبكِ لي بعد كلِّ ما قد جرى ؟! أإلى هذهِ الدرجةِ كنتُ سيئاً معكِ ؟! ولم أستطع تحريك ذرةٍ من الحبِ في قلبكِ تجاهي ؟! لِمَ جعلتِ مني إنساناً لا يصدقُ إلى الآن أنهُ قد خرجَ من معركةِ عشقكِ مهزوماً ... خرجَ خاويَ اليدين و بدونِ مثقال ذرّةٍ من غبار يشفقُ عليهِ ويلامسُ أطرافَ أكتافَهِ حتى ... أتعلمينَ يا (ريتاج) .. هذهِ أولُ مرةٍ أتكلمُ فيها بمنتهى الحرية ولا أخافُ النظرَ إلى وجهكِ ! لا ... لا ... لا تقلقي .. لم أصبح شُجاعاً كما تتصورينَ الآن ... ولكنني أعلمُ أنكِ لاتستطيعينَ سماعي ...

أريدُ أن أطلبَ منكِ شيئاً ... أرجوكِ لا تتأخري بالصعودِ إلى عالمي ... فعالمُ البرزخِ يبدو مرعباً ... تعالي لكي نتشاركَ جميعَ الأشياءِ سويةً ...لا أريدُ منكِ أيَّ شيء ...فلستُ طامِعاً بأيةِ مشاعر ... يَكفيني أن أشعرَ بكِ وأنتِ بجانبي .

هذا ماقالهُ (ورد) وهو جالسٌ بقربِ (ريتاج) يمسحُ بيديهِ على وجهِها ... ويداعبُ شعرها الناعم ... فهذا عِتابٌ قد قامَ بإخفائهِ منذُ سنواتٍ طويلة ... وحانَ الوقت لكي يخرج ... لعلهُ يخففُ القليلَ من أثقالهِ.

القمرُ قد تفرقَت أجزاؤهُ خلفَ الغيوم التي باتت تحملُ في جوفِها دموعاً وليست مياهاً عادية ... والشمسُ قد عادت من جديد تحملُ معها أحلامَ البارحة.

- مع أنني قد خُلقتُ من نور ... ولكنَّ (ورد) بحبهِ لريتاج جعلَ مني إنساناً مثلهُ يشعرُ كيف يبدو الأسى والألم .

- الجبالُ في الأرض تحمدُ الله أنها خُلقت بلا قلب ... ونحنُ الملائكةَ في السماء نحمدُ الله أنهُ خلقنا بلا قلب ... فمشاعرُ الحُبِ مؤلمة جداً !

- بل جميعُ أنواعِ المشاعرِ مؤلمة .

- انظر .. من هو ذلك الشاب الذي جلسَ (ورد) أمامهُ الآن ؟

- أولُ مرةٍ أراه ... ولكن يبدو على مظهرهِ أنهُ وافدٌ جديدٌ إلى هذا العالم .

- لا أعلمُ لماذا يرتعبونَ من هذا المكان ... فالأرضُ تبدو أكثرَ رعباً من هنا !

- طبيعةُ البشرِ كذلك ... يخافونَ من الموت ... ومن الصعودِ إلى هنا ... ولكن لامفرَ لهم من عالمِ البرزخ ... حتى يشاءَ الله ويبعثُون من جديد ..

- عامر : أين أنا ؟ لمَ يبدو مظهري هكذا ؟ ماذا أصابَ يدي حتى صارت بهذا الشكل ؟!

- ورد : اهدأ ... اهدأ ... ولا تقلق ... أنتَ بأمانٍ هنا أكثرَ من أيِّ وقت قد مضى .

- عامر : أريدُ أن أعلمَ فقط أينَ أنا ؟

- ورد : أنتَ في عالمِ البرزخ ... عالمِ الأرواح ... أنتَ ميتٌ مثلي .... كلُّ شخصٍ تصادفهُ هنا هو شخصٌ ميت .

- عامر : وأخيراً .. تخلصتُ من عالمِ البشر المقرف ! ولكنني اشتقتُ لمرام !

خرج من فمه هذا الاسم ... ومشاعرُ الترددِ والحيرةِ ظاهرةٌ عليه ... و بدا وكأنهُ يريدُ الهروب بوجهِه بعيداً عن أنظارِ (ورد) ... ولكنَّ لمعةَ الشوقِ في أعينهِ كانَت تفضحه .

و بابتسامةٍ حزينةٍ ارتسمت على شفتيْهِ وقد حملت في طياتهِا أسباباً مُضمرة ...

عبَّرَ بها (عامر) عن مرارةِ أيامٍ لم يتمكن من أن يتجاوزها .
مشاعرُ متقلبةٌ تسكنُ هذا الشاب كتقلبِ مناخِ الشتاءِ في بلدي ... شبيهٌ آخر من أشباهي ألتقي بهم ... ولكنْ في هذهِ المرة .. حتى ملامحُ الوجهِ نسخةٌ عني ... يا الله ؛ هل حقاً أنا في عالمِ الأرواح أم أنَّهُ مجردُ حلمٍ من أحلامي الخيالية ! قاطع (ورد) حديثهُ مع نفسهِ ، ووضع أناملهُ على كتفِ (عامر)
- ورد : لا تخف ... تستطيعُ رؤيتها متى شئتَ ... فقط ، قم بإغلاقِ عينيك وسترى نفسكَ بجانبِها .
وضعَ عامر رأسهُ بينَ يديْهِ ... فالصبرُ قد هجرهُ ورحل ... وقيودٌ قد حجزت على جميعِ أملاكهِ من السعادة ... أصبحَ كطيرٍ مكسورِ القلبِ و العين وليسَ الجناح ! ... يستطيعُ أن يحلقَ في السماءِ كما يريد ولكنهُ لا يرى شيئاً مما يريد ... وهاهو الآن يسيرُ في غرفةٍ مظلمةٍ كسجينٍ يجرُ خلفهُ الأغلال .

- أين الوعد الذي بيننا يا أبَا عامر ؟ لقد تجازوتَ الثلاثةَ أشهر بسنةٍ كاملة ... أنا أريدُ نقودي ... أريدُها بأيّةِ طريقة ..

-أعلمُ أنني قد أخلفتُ بوعدي لكَ ... ولكنّكَ أكثرُ شخصٍ يعرف ظروفي ... اصبر عليَّ قليلاً أيضاً .. أرجوك ..

- لقد تعبتُ من الصبرِ والوعودِ الفارغة ... أريدُ أن أسمعَ كلاماً مفيداً ... بدأتُ أخافُ أن أستيقظَ يوماً ما وأراكَ قد سافرتَ خارج البلاد .

- ماذا تريدُ الآن إذاً ؟

- أريدُ ضماناً حتى تردَّ إليَّ المال .

- لا أملكُ إلا ضماناً واحداً.

- ماهو ؟ فما أعلمهُ عنك أنكَ شخصٌ فقير لاتملكُ شيئاً...

- ولدي عامر ..

- ماذا ؟! ماذا تقصد ؟!.. كيف ذلك؟!!!

- خذ ولدي (عامر) رهينةً ... ولا تجعلهُ يعلم أنني وراءَ ذلك ... وسيبقى بصحبتِكَ خادماً مطيعاً إلى أن يأتي اليوم الذي أجلبُ لك فيه النقود .

- تريدُ أن تُرهِنَ ولدكَ الوحيد مقابلَ عشرِ ملايين ليرة ؟!

- ماذا أفعل ؟! إنَّه الشيء الوحيد الذي أملكهُ .

- وأنا موافق ... انصرف الآن واترك ما بقي لي .

" لا تحزن .. فحتى القمرُ يملكُ على صفحتهِ ندوباً ... فالكمالُ لربِ العبادِ وحدهُ سبحانه " ... هذا ما سمعَه (عامر) من همساتِ (ورد) في أذنهِ ..

- عامر : كنتُ أخشى النظرَ إلى نفسي ... أخشى التحدثَ بيني وبينَ نفسي ... كنتُ فقط أنشغل بعدِّ النجوم المسكونةِ في السماء ... لقد أصبحوا أصدقاءَ لي ... فهذهِ النجوم هي من أكثرِ الأشياءِ التي أفتقدُها الآن ..

- ورد : وماذا عن (مرام) ... أين ذهبتَ بها ؟!

- عامر : (مرام) هي فتاةٌ جنى عليها القدر ، فأغرمتْ بي رغمَ نقصي ! وقد سدَّت بأصابعِها الحنونةِ ثقوبَ قلبي وأوقفت النزيفَ فيه ... وجعلت مني - رغمَ رفضي لفكرةِ الحبِّ - عاشقاً متيّماً بها ... كنتُ أرفض الحبّ وليس ذلك لأنها فتاةٌ قبيحة او ما شابهَ ذلك ... بل لأنها كانت فتاةً استثنائية لاشبيهَ لها وأنا لا أريدُها أن تتعرضَ للظلمِ معي ... ومع أنها قد رضيَت بي وأقنعت مخاوفي بأنه في الحبِ لا شيءَ مستحيل إلا أنَّ القدرَ لم يقتنع و لم يرضَ بالظلمِ لها .

كانَ أعدلَ مني ... لهذا السبب أنا أتحدثُ معكَ الآن .

تساؤلاتٌ كثيرة قد تدفقت إلى أفكارِ (ورد) ... أصبحَ تائهاً ... لايفهمُ شيئاً ...من أنتَ ياعامر ؟! وما الوجعُ الذي تخفيه ؟!

- ها قد أصبحتَ بينَنا يا (عامر) .

- من أنتم ؟ وماذا تريدونَ مني؟!

- طلبُنا ليس بالشيء الكثير .. نحن فقط نريدُ نقودُنا من والدِكَ المسكين .
- والدي أنا ؟! عن أيةِ نقودٍ تتكلمونَ ؟
- عشرُ ملايينِ ليرة .. اقترضها مني منذُ سنةٍ وثلاثةِ أشهر
- أنتَ تكذب ... أبي لا يفعلُ ذلك ... وإن فعل فهو يخبرُني بكلِّ شيء ... إنّه صديقٌ لي قبلَ أن يكونَ أباً ..
- أسكتْ هذا المغفلَ ، فصوتهُ أصبحَ يزعجُني .. لكمةٌ تركت بصماتها على صدرهِ ... وأخرى قد أفقدتهُ الوعي ... وأنينُ صراخهِ قد غمغمَ كلامهُ ... ما الذنبُ الذي اقترفهُ (عامر) لتسلّمه إلى هؤلاءِ الوحوش ؟! ...أيُّ أبٍ أنتَ أخبرني ؟!
تُرهنُ ولدكَ الوحيد لأجلِ المال !!
إنه حقاً لَمَن أصعبِ المشاعرِ أن تكونَ مغدوراً من أقربِ الأشخاصِ لكَ وأنتَ لا تعلم ...

وتعيش مخدوعاً بهِ ! والأصعب من ذلك أن تعتقد أنه من سلالةِ الملائكة ويكونَ هو بالأصل ...شيطاناً ملعوناً و مطروداً من بينِ أحفادِ الشياطين

- أبوكَ أصبحَ يماطلُ كثيراً معي وأنا لم أعد أحتمل ... أنتَ هنا برفقتي منذُ شهور وهو لا يبالي وكأنَّكَ لستَ بولدهِ ... أنتَ أيُّها الأحمق قم وتحرك واجلب لي شيئاً حاداً ... فقد نفدَ الصبرُ مني ..

- ماذا تريدُ مني ؟ ماذا تنوي أن تفعل؟؟

- لاشيء .. فقط تهديدٌ خفيف ... لكي يعلم أبوكَ المحترم أنني لستُ بأضحوكة .

أمسكَ بلسانِ (عامر) وقامَ ببترهِ ... وصرخاتُ (عامر) تصل إلى عنان السماء و تقبِّلُ زوايا المكان كجبلٍ شامخٍ تقذفه الحِجَارة ... وأمَّا شفتاهُ الملطختانِ بالدماء فتتسابقُ الآهات إليهما ...

وشمسُ فؤادهِ قد انفجرت ... و توارت نجومهُ خلفَ الضباب ...

يفتحُ فمهُ مُحاولاً النطق ولكن الحروفَ قد رحلت مع لسانهِ رحيلاً لا مجال فيه للعودة .

- سامحني ياولدي ... أنا من كنتُ السببَ في ذلك ... كيفَ سأنظرُ إلى وجهِكَ مُجدداً لا أعلم ؟! ... عشْتَ بصحبتي فقيراً ... والأن أترك لكَ خلفي قهراً طويلاً من الصعبِ أن يزول ..

- عامر : القدرُ يا (ورد) أحرقني بجرحٍ دائم ! فلا الجرحُ يعرفُ طريقَ الرحيل و لا يقدّم لك أيَّ بدائل .

الدموعُ كانت على أتمِّ الاستعدادِ في أعينِ (ورد) كفرقةٍ عسكرية تنتظر الأوامر من قائدِها لتبدأ الحرب .

- ورد : الدُنيا قد سرقت منَّا جميعَ أنواعِ الفرحِ ياصديقي ... والطريقُ من عذابٍ إلى آخر كان طويلاً ... وطويلاً جداً .

(ريتاج) خرجت من المشفى وعادت إلى بيتِها ...
هذا البيتُ الذي أصبحَ فارغاً من بعدِ رحيلِّكَ يا (ورد) .
فالفراغُ باتَ يستلقي على كلِّ جدرانِ المنزل ...
فراغٌ قد اشتاقَ إلى صوتِ ضحكتِكَ وشوقهُ الأكثر إلى صوتِ بُكائك ! .
حلَّ الليلُ مجدداً في عالمِ البرزخ ... والملائكةُ تتجولُ في سمائِها وهي تسبِّحُ خالقِها ...وأرواحُ البشرِ مبعثرةٌ هنا وهناك ... وها هي تأتي من بعيد ...
لقد نزعت ضلعَ آدم من داخلها وجلست هنا .
- لقد أتيتُ يافؤادي ... ياسعادةَ أيامي ...فأينَ أنت ؟
لقد بقيتُ وحيدةً في كثيرٍ من الليالي الموحشة التي كانت تتغذى من حطامِ قلبي المُعتم ! وكأنَّ العيونَ تريد إفراغَ مستودع أحزانها ...ولم تجد مكاناً لها أفضل من عيني !

- أينَ كنتِ إلى الآن ؟! فهذهِ الدموعُ التي تذرفينها أصبحت ترافقُني أينما أذهب ...حتى في هذا العالم ؛ الراحةُ قد غادرت من شغافِ قلبٍ ماتَ ألفَ مرة شوقاً إليكِ .

- وأنا أيضاً اشتقتُ لضحكتِكَ ، لمُزاحِكَ معي ... اشتقتُ لتلكَ الأيامِ الجميلة معك ... إنّ حياتي قد أصبحت سراباً بعد رحيلكَ عنها ... سراباً أبحثُ عنكَ فيه ... أبحثُ في كلِّ زاوية ... أريدُ أن أراكَ لمرةٍ واحدةٍ فقط ... أريد أن ألمحَ بضعةً من خصُلاتِ شعرِكَ لكي أعيشَ على ذِكراها سنواتٍ أخرى ... فقد غابَ شروقُ الصبرِ عني ونفدَ ماتبقى من طاقتي ... أريدُ أن أضمُكَ إلى صدري ... وأسقي عينيكَ المتعبتينِ من حناني ... اشتقتُ لكَ حقاً !

- لقد تغيرت حياتُكِ كثيراً ، والآن لستِ بحاجةٍ إلي ... أما أنا فلم يتغيّر فيَّ شيء ... لقد كنتُ كالجمرِ أمامَ عينيْكِ ... والآن أصبحتُ رماداً !

- حتّى وإن توارى قلبي خلفَ الغيوم ...واحتلَّ السوادُ عيوني ... لن أنسى أنكَ أجملُ شيءٍ قد سكنَ الفؤاد !

ومن بينِ تلكَ الغيومِ التي تلاشت ... فجأةً ، استيقظَ (ورد) من نومهِ وهو يبكي .

- عامر : ما بك؟ كنت تبكي وأنتَ نائم !!

- ورد : لقد تمنيتُ ألا ينتهي الحلم ، تمنيتُ ألا أستيقظ ... لقد رأيتُها ... رأيتُ نفسي مرةً أخرى ... شعرتُ بيديْها وهي تلامسُ ترابَ قبري ... تمنيتُ العودةَ إلى الدنيا لكي أُقبِّلَ تلكَ اليدين...لكي أسألَها : أينَ تلاشى ذاكَ السراب الذي تحدثت عنهُ حتى أصبحَ قلبُها بهذهِ القسوة !!

- عامر : نحنُ مجردُ أرواحٍ هنا ، وعمّا قريبٍ ستصعدُ هي أيضاً إلينا ...كن واثقاً بأنكَ ستراها وتخبرَها بكلِّ شيء .

كانت الشوارعُ في أعينِ (ورد) يغطيِّها الضباب ... ضبابٌ من آلامٍ قد نبُتَت بينَ أضلعهِ ...كانَ يبحثُ عن نفسهِ في عينيْها فقط ... وأمَّا أعينهُ فقد تفتتَ الجمرُ فوقَ بريقِ نجومهِ ... وسكنت غصةٌ في جعبتهِ جعلت المكانَ صالحاً للعيش ... وبجوارهِ قبورٌ من الوجع ... خلفَ مدينةٍ ، السكانُ باتوا يهجرونها خوفاً من فرجٍ قادم .

(شهرٌ كاملٌ قد مضى و الحزنُ بقي مستوطناً ، والفرحُ مسروقاً)

- عامر : مابكَ ؟ ألم تتعب من الوقوفِ بجانبِ قبرِكَ كالمجنون ! الساعةُ الآن الرابعةُ فجراً ... أتتوقعُ منها أن تأتي إلى هنا في هذا الوقت المتأخر ؟!

- ورد : لعلَ قلبَها يشتاقُ إلي ، وترى طيفي في منامِها مثلما أراها أنا في كلِّ مكان ... لعلها تتذكرُني وتحنُّ أنفاسُها إلى أنفاسي ، فرائحتُها لم تفارق زهورَ قلبي رغم الأشواك ! ...

لعلها تستيقظُ من نومِها مثلَ المجنونة وهي تصرخُ باسمي ... لقد مرَّ شهرٌ كاملٌ منذُ آخرِ زيارةٍ لها .

- عامر : وأنا ماذا عسايَ أقول يا (ورد) ؟ لقد كانَ أبي سبباً لموتي ! وقد ضحّى بي من أجل مصلحتهِ و نجاتهِ هو ... وأمي المسكينة دفعت الثمن باهظاً لذنبٍ لم تقترفهُ ... حتى روحي أصبحت لا ترغب بزيارتها لأنني اكتفيتُ قتلاً من الاقتراب .. وباتَ البعدُ عنها يقتلُني أيضاً فماذا أفعل ؟ أخبرني ؟

- ورد : أشعرّ بكَ وبألمك جيّداً .. ولكنني هنا بجانبِكَ وسأبقى هنا ولن أغادر .

- عامر : كيفَ لشخصٍ مثلِكَ يملكُ كل هذهِ الطيبة أن يتألمَ في دنياه هكذا يا (ورد) ؟

- ورد : لأنني كنتُ كذلكَ تألمت ... كنتُ أغطي رموشَ (ريتاج) بجفوني ... وأجعلُ من قلبي وسادةً لعينيْها عندما تريدُ أن تغفو ...

لقد اشتقتُ لها كثيراً ... لن أسامحَ نفسي فلقد قسوتُ عليها في المنام .

- عامر : عن أيّةِ قسوةٍ تتكلمُ أنت ؟! وعدمُ زيارتِها لكَ ألا تسمِّيها قسوة ... وعدم سؤالها عنك وقد كانت تدعوكَ (قلبَها) أليست بقسوة ؟!

- ورد : لا أستطيعُ لومَها على شيء ... سأكتفي بالوقوفِ هنا وسيأتي ذلكَ اليوم الذي أراها فيه ...

وأصبحَ (ورد) يقولُ في نفسهِ : لو علمتَ ياصديقي مرارةَ الأوجاع التي ذقتُها في الدنيا فستحمدُ الله على تواجُدي هنا .

- عامر : أتحبُ (ريتاج) إلى هذهِ الدرجة ؟!

- ورد : لن أسمي ذلك حباً ، لأنَّها لم تكن لي يوماً ولن تكون لي أبداً .

كانَ اليأسُ يسكنُ في أحشاءِ (ورد) والأشواكُ قد غطت بساتينَ قلبهِ ...

أما (عامر) فقد كانَ يحاولُ دائماً نزعَ تلكَ الأشواك من دونِ أن يعلمَ حتى ماهي حقيقة القصة ! .

ومن جهةٍ أخرى كانت (ريتاج) جالسةً تشاهدُ التلفاز وتذكرت حبَّ حياتِها الوحيد (أحمد) فأمسكت بهاتِفها وبدأت تكتبُ رسالةً نصيةً لهُ .

- ريتاج : كيفَ حالُكَ ؟ إن لم أسأل أنا عنك أفلا تسألُ عني ؟

وجاءها الردُ منهُ :

- أحمد : لم يعد يهمني شيء يا (ريتاج) .

فهذهِ الدنيا قد أحرقت قلبي بالكامل والحريقُ بدأ بالوصولِ إلى عيني .

- ريتاج : لا تتحدث بهذهِ الطريقة وتجعلَ من نيرانِ قلبِكَ تشعِلُ النارَ في كبدي .

صوتُ تحرّكِ البابِ بقوةٍ كانَ كفيلاً أن يرعبَ (ريتاج) .

كانَت روحُ (ورد) تراقبُ وتشاهدُ مايحدث وها قد خرجت روحهُ مجدداً لتجدَ نفسها خلفَ دويلاتٍ من الوجع ! كانَ يبحثُ عن نفسهِ في قلبِها ولكنهُ خرجَ والنيرانُ في قلبهِ مستعرةٌ كالعادة ... بدأ يخمدُ تلكَ النيرانَ بيدهِ ليسَ خوفاً على نفسهِ وإنما خوفاً على مَنْ يسكنُ قلبهُ !

و بدأت روحهُ تكلمُ نفسها :

كانت تقولُ منذُ فترة بأنني الشخصُ الوحيد الذي يستحقُّ الحبّ ، فلماذا قد تراجعت عن كلامِها ؟ ماذا فعلتُ يا الله .. بماذا أخطأتُ لأستحقَ كلَّ هذا ؟! كانوا يقولون إنَّ الإنسانَ يصبحُ عزيزاً بعد موتهِ ، وأنا قد نبُتَ الزهرُ فوقَ عظامي ولم أصبح عزيزاً ! ... القدرُ قد أحرقني في الدنيا وها هو يحرقني الآن ... ماذا فعلتُ لكي أستحقَ الحرقَ مرتين ؟! .

بدأ (ورد) بالتقاطِ أجزاءٍ من قلبهِ المكسور على شرفةِ نافذتهِ ... وجلسَ جانباً ...

لكي يبكي ويستسلم للدموع ... وبدأ يتأملُ أوردةَ قلبهِ الممزقة ... ليسَ ذنبهُ أن تسكُنَ تلكَ الحسرةُ بينَ أضلعهِ و تخبرَهُ :

أهذهِ (ريتاج) نفسُها التي كانت تحدثُكَ دوماً بقسوة ! أهي نفسُها من كانت تكلمُ (أحمدَ) الآن بلهجةٍ لم تحظَ أنتَ ولو بنصفِها .

سارعَ (ورد) ببثِّ شكواه وأحزانهِ في أُذن (عامر) .

- ورد : أنا لا أبدو مثلهم يا (عامر) ولن أصبح مثلهم أبداً .

- عامر : إنني أراكَ أجملَ كائنٍ خلقهُ الله و أعزَّ ما أملك .

- ورد : تألمتُ كثيراً ياصديقي ... فخلفَ تشتّتي البعيد في غابةٍ زرعت في قلبي سراباً من الوجع ، ها أنا الآن أسكنُ في سماءٍ بلا نجوم بجانبِ طيورٍ بلا أجنحة .

وها هو قلبي يتوارى خلفَ الغيوم ، والقدرُ قد أزالَ بياضَ عينيَّ ! ورسمَ الأفراحَ على مباسمهم ، وخصَّ الأحزانَ بمبسمي ! وكأنَّ الشمسَ قد أحاطَت بهم بضيائها ... وغربانٌ من اليأسِ قد أحاطت بي .

- عامر : أعلم ذلك جيداً ياصديقي .. ولكنْ حتى لو رأيتُ الشمسَ تشرقُ عليْكَ بألوانٍ باهتة فسأجعلُ من قلبي شمساً آخرَ لسوادِ أيامِكَ .

- ورد : أتعلم أنني أرى فيكَ السعادةَ والأمان الذي كنتُ أفتقده في الدنيا .

- عامر : أعلمُ ذلك لأنني أشعرُ بهذا أيضاً ... والآن أخبرني : لمَ كنتَ تبكي ؟ هل ذهابُكَ لرؤيةِ (ريتاج) كان السببُ في ذلك ؟!

- ورد : ليتَ الحجرَ قد أقسمَ على قدمي بالعجزِ ولم يدعني أذهب ... فإنني الآن ألتقي بها في كلِّ زاويةٍ من تفكيري ... أما في ذاكرتِها فلم ألمح حتى صورةً لعينيَ المغرمة !

- عامر : لماذا ؟ أهيَ بخير ؟
- ورد : إنَّها بخير لدرجةٍ باتَ الشوقُ يحرقُها اشتياقاً لقلبِ ذلك المسكين ! وقد نسيت قلبيَ المجرم الذي كانَ ذنبهُ الوحيد أنهُ جعلَ من نفسهِ جهنماً لرؤيةِ الابتسامةِ على خدَّيها !
وبدأ (ورد) يبكي ، و يداهُ تدعوان الله أن يتوقفَ قلبه عن النزيف ... ومن ثمَ قال و النيرانُ تحرق الزهورَ في عينهِ : لماذا أنا يارب ؟!
فجلسَ (عامر) بجانبهِ ، ووضع رأسهُ على كتفهِ :
- عامر : لا تبكِ ؛ ... فهذهِ الدموعُ تقطعُ شراييني !
- ورد : كيفَ لا أبكي وكنتُ أسكنُ في عمرٍ ربيعُ شبابهِ محروق ! ... وفي سوادٍ يتغذى على بقايا أشلائي ! كيفَ لا أبكي وقلوبٌ بوسعِ الدنيا كانت تضيقُ ببقائي ! وكيفَ لا أبكي وهناكَ حسرةٌ تكبِّلُني لأنني لا أرى بريقَ اهتمامٍ في أعينهم تجاهي ؟! ...

وكيفَ لا أبكي و قد كنتُ فوق الجمرِ أتجولُ حافياً ؟! وكيف لي أن أشعُرَ بوهجهِ والنيرانُ قد أحرقت سمائي ؟! وكيف لا أبكي وذاكرتي باتت خائنةً .. باتت تطعنُني في قلبي بذكرياتها السيئة ! ولكن في الواقع هي على حق ... لأنني لا أملكُ شيئاً يسمى : (ذكرى جميلة) !

- عامر : لا تقلق ياصديقي ، سيعوضُكَ الله خيراً .. كن واثقاً من ذلك .

- ورد : لولا توكلي على ربِ العباد لكنتُ هشاً أكثر . سنةٌ كاملةٌ قد مضت ، وفي ذلكَ اليومِ تحديداً نهضت روحُ (ورد) مسرعةً للوقوفِ بجانبِ القبر . إنها ذكرى وفاتهِ الأولى .. هو لاينتظرُ قدومَ أحد ، و إنما ينتظرُ (ريتاج) فقط .

وتناقضاتٌ باتَت تخبرُهُ بها نفسهُ : هل ستأتي (ريتاج) ياتُرى ؟ ! فعندما كنتُ أغيبُ عنها كانت تخبرُني أنها اشتاقت إلي ، ...

وأنَّ الفراغَ الذي أصنعهُ عند غيابي يكونُ واضحاً جداً ... فهل ستأتي؟!

وها هو يلمحُ شخصاً يأتي من بعيد ... وبدأ الفرحُ أخيراً يلمعُ في عينيْهِ ... أحقاً هي ؟! هل هي (ريتاااج) أم أنني من شدةِ الحزنِ أتوهم ؟! لاااا ... إنَّها (ريتاج) أتذكّرُ لِباسَها الخمريَّ جيداً ... تُرى هل ما أراهُ الآن حقيقيّ أم أنه مجردُ خيال وأنا ما زلتُ نائِماً في فراشي ؟! ولكنني لستُ بشخصٍ يتوهم .

أهو الحرمان الذي يجعلني أراها خيالاً ؟! لااا ... إنها هي ... إنها هي حقاً ... أشعرُ بخطواتِها في قلبي ... وإن كانت عينايَ تكذبان فقلبي لا يكذب أبداً .

ياالله .. أشعرُ وكأنني قد عدتُ إلى الدنيا من جديد ... أشعرُ وكأنني برفقتِها في كلِّ مكانٍ تخرجُ إليه ... ياالله ...

إنني أشعر من جديد ...ومنذُ متى لم أشعر
وها هي روحهُ تتمايلُ حولَ القبرِ فرحاً بقدومِها ...
و (ريتاج) تقفُ على قبرِ (ورد) وتنحني لكي تقبِّلَ رأسهُ .
وها هو (ورد) يبكي ، راجياً من دموعهِ إطفاءَ القليلِ والقليلِ جداً من نيرانهِ .
- ريتاج :أين أنت ؟! أحقاً غادرتنا ؟! أحاولُ ألا أُصدِقَ ماجرى ... كيف يأتي طيفُكَ إلى منامي خائفاً من أنني قد نسيتُ شخصاً باسمِ (ورد) ؟!
أودُ أن أخبِركَ أنني سأبقى بجانبِكَ وأسألُ عنكَ دائماً حتى تصبحَ النيرانُ في قلبي أزهاراً .
السنةُ الماضية في مثلِ هذا اليوم كنتُ أبكي هنا ... كنتُ أتساءلُ : كيفَ سأُكملُ ماتبقى من حياتي بدونِكَ ... وكأنَّكَ كنتَ تسمعُني ...

ففي تلك اللحظةِ نفسِها زرعتَ في داخلي روحُكَ الطاهرة بدلاً من أن ترسلَها إلى السماء ... حتى استطعتُ أن أقفَ على قدميَّ من جديد وأكمل ... ولكن ، ما زلتُ أتمنى أن تحيا لكي أسعدَكَ مثلما كنتَ ترغب وتتمنى ... أعلمُ أنَّكَ رحلتَ وفي داخلِكَ ألفُ غصة ... أعلمُ ذلكَ جيّداً ... لكنني أطلب من اللهِ أن يعيدكَ إلى الدنيا يوماً واحداً فقط لكي أعطيكَ ما كنت تفتقدُ من حنانٍ ومحبةٍ ياملاكي المخلص ... لقد أبكرتَ في رحيلِكَ ...أبكرتَ كثيراً ... هل سيرزقني الله شخصاً يحبُني أكثرَ منك ؟! لا أعتقدُ ذلك ...حتى لو أُغرِمَ بي شابٌ كامل الأوصاف ، ووضعَ الدنيا بأسرها في أحضاني ؛ فإنه لن يملِكَ قلباً دافئاً مثلَ قلبِكَ وروحاً نقيّة مثلَ روحِكَ ... يا أنبلَ مَن رأيتُه في هذه الدّنيا ولن يجودَ الزمان بمثله ! أتعلمُ شيئاً يا ملاكي ؟! ...

كلما نظرتُ إلى القمرِ أراك ... وكلما لمحتُ شروقَ الشمسِ أراك ... في الجوامعِ والمساجدِ والكنائسِ أراك ... وإلى أيِّ مكانٍ أذهبُ إليهِ أراك ... في منامي وأحلامي ... في جلوسي وقيامي ... أراك ... في صلاتي وركوعي وسجودي أراك ... وها أنا كلما نظرْتُ حولي في وجوهِ العابرينَ أراك ... وكأنَّكَ خُلقتَ مني !!

فأريدُ منكَ العودةَ إلى قلبي الكئيب ... نعم ؛ أعتذرُ منكَ ... لقد كنتُ مجرمةً في حقِكَ ... لا أعلم ما الذي أصابني ... وها قد بدأت بالحديثِ وأنا أكررُ العباراتِ والكلماتِ ذاتِها ... هيا ، قُم من قبرِكَ وقل لي ما كنتَ تقولُه لي من قبل : لاتبكِ يا (ريتاج) فهذه الدموعُ تشعلُ في قلبي جهنماً ... أين أنتَ الآن ؟ أرجوك ، أريدُ منكَ العودة ؛ فبعدَ شهرٍ من الآن يصادف عيدَ ميلادِكَ . ولن أتجاهلهُ مثلَ السنةِ الماضية بحجةِ الظروف ...

أرجوك ، أريدُكَ أن تعود ؛ فلا تجعل مني مذنبةً تأكلُ رؤوسَ أصابِعها ندماً ... أريدُ أن أغفوَ بجانبِ قبرِكَ الليلة ، فلعلكَ تقومُ بزيارتي في المنام . حتى لو أتيتَ بهيئةِ خيالٍ على بعدِ أيامٍ وليالٍ فأنا جِدُّ راضية ...

أريدُ أن أراكَ كي أطمئِنَ عنكَ ، وعن أحوالك هناك ... وهل السوادُ ما زالَ يعيشُ بجوارِكَ أم أنَّكَ تعيشُ بسعادةٍ أكثرَ من هنا ؟! ثم توقفتْ عن الكلام ، ولم تستطع أن تُكمل حديثها من غزارةِ الدموعِ التي أكلت من وجهِها مساحاتٍ كبيرة أصبحت خاليةً برحيلِ (ورد) .

- ورد : ليتَكِ تستطعينَ سماعي الآن ! ...

آهٍ يا (ريتاج) أنتِ على حقٍّ ... لأولِ مرةٍ أنتِ على حقٍّ ... نعم ، لقد رحلتُ وفي داخلي ألفُ غصة ... ولم أستطع البوحَ بها ...

وكيفَ لي أن أبوحَ بها ...
وفي كلِّ مرةٍ كانت الغصةُ بسببي وكانَ الخطأُ مني أنا ؟! ألم تخبريني بهذا الكلام مراراً وتكراراً في كلِّ مرةٍ كنتُ أريدُ أن أتحدثَ إليكِ عمّا يجري في داخلي ؟! أتذكرينَ عندما كنتِ تقولينَ لي أنتَ شخصٌ حساس ... ولكن ياليتني لو استطعت أن أقفَ أمامَكِ يوماً وأخبرَكِ أنني لستُ بشخصٍ حساس ، ولكنَّ قلبي كانَ يغفو حيثُ الوجعُ يرتاحُ ... كنتُ أخافُ عليكِ من كلمةٍ تخرجُ مني من دونِ قصد وتجرحُكِ ... أمَّا أنا فقد كانت الكلماتُ والجروحُ تسبحُ في أعماقِ أحزاني ...
كنتُ أشتهي أن أشعرَ بالقليلِ من الاهتمامِ والتفاني لأجلي ، ولكنني تذكرت أنني لا أستحقُ ذلك ... هل سيبقى هذا السؤالُ يراودني ؟! لماذا لم يحبّني أحدٌ منكم أكثرَ مما أحببتهُ ؟ ...

هل كنتُ أشكو من النقصِ إلى هذهِ الدرجة ؟! ... أم أنني لستُ ببشرٍ مثلكم ؟! ... لماذا لم أرَ شخصاً واحداً يقاتلُ في ألفِ حربٍ من أجلي ؟! فأنتم يا أهلَ الحب تكرهونَ الغيرةَ وتصفونها بالسجنِ والخنق ... أما أنا فكنتُ أشتهي غيرةً عمياء تجعلُني أشعرُ بأنني شخصٌ ذو أهمية عندَ أحدهم ... عن أي وجعٍ أتكلم ولأيِّ شخصٍ أحكي ؟ ! فأنا قدمتُ لكِ كلَّ ما أملك ... لقد كنتُ على استعدادٍ لأن أبكي طوالَ عمري دموعاً لو طلبتِ مني ذلك ... ولكنّكِ بكلِّ بساطةٍ قُلتِ لي : لا أستطع أن أحبَّكَ .

وها هي (ريتاج) تمسحُ أمطارَ دموعِها ؛ فغيومُ عينيْها قد جفت ... دموعٌ قد أنعشت ذكرياتِ اللقاء الأول والرحيلَ الأخير ! بدت وكأنها سحابةٌ مزّقت نفسها بنفسِها .

أسندت (ريتاج) يدها على ترابِ بيتكَ يا (ورد) ونهضت ، فحطامُ تلكَ الأيامِ التي جمعتكَ بها لم يترك سلاماً في داخلِها ... لم يترك فرحاً بصحبتِها ... ولم يترك مكاناً لها يشعرها بالأمان ! .

لحظاتٌ أخرى من عالمِ (عامر) جمَعتْه بحبيبتهِ (مرام) وباتَ يتحدثُ معها قائلاً : سامحيني يا مرام ... سامحيني يا نبضَ قلبي ، فأنا لا أملكُ الجرأةَ مثلَ (ورد) .

لقد أخبرني أنني أستطيعُ أن أراكِ متى ما أردت ، ولكنني في كلِّ مرةٍ أغمضُ فيها عيني وأسمعُ صوتكِ الذي بدا مُوحشاً ... أخاف ... أخافُ على هذهِ العيونِ أن تخرجَ من محجرها إن رأت كيفَ أنَّ الحزنَ قد تمكنَ من جميعِ أجزائكِ ! أجلسُ كلَّ ليلةٍ كالمجنونِ أخاطبُكِ وكأنكِ تجلسينَ أمامي ... أنظرُ إليكِ ... أتمعَّنُ في كل تفاصيلِكِ ...

أتغزلُ بكِ ... ولا أودُ من الصباحِ المجيء !.
منذ قليلٍ ذهبت روحُ (ورد) لتلتقي بريتاج ...
فقمتُ باستغلالِ الفرصةِ للحديثِ معكِ مرةً
أخرى ... أأخبرُكِ شيئاً ؟! حتى (ورد)
يخفي في صدرهِ مدينةً مجروحةً مثلي ... وقد يكونُ
خافياً لمدنٍ بأكملِها ... والله أعلم .
شيئان لا يلتقيانِ لقاءً كاملاً : البشرُ والسعادة !
وشيئان لايفترقانِ أبداً : الأرواح والهمومُ التي
أثقلتْها في الدُنيا!
- مَن ذلك الشابُ الوسيم الذي رأيتهُ في الحيِّ وأنا
قادمةٌ إليكِ ؟!
- أتقصدين (عامر) الذي يسكنُ في المنزلِ المقابلِ
لنا ؟
- نعم ، لقد رأيتهُ يخرجُ من هناك ...
- ولكن ، كيفَ عرفت اسمه؟

- لقد سكنوا هنا منذُ عدةِ أشهر ... و عندما يتحدثُ عنهم أبي يناديهم (بيت أبو عامر) .
وليس لديهم سوى هذا الشاب فعلمتُ من تلقاءِ نفسي أنهُ يُدعى (عامر) .
- أشعر من خلالِ هذهِ الكلماتِ العادية التي تلفّظ لسانُكِ بها بوجودِ فتيلٍ للحب ... فأنا أراكِ (مراماً) أخرى منذُ عدّةِ شهور ، ولستِ بصديقةِ الطفولة التي أعرفها ! وكلما سألتكِ تهرَّبْتِ من الأجوبة ...
فهل (عامر) هو السبب ؟
- نعم ، هو السبب ... ولكنْ ، ما فائدةُ ذلك إن كانَ هو كهذا الحائطِ الذي يقبعُ خلفَكَ لايشعرُ بشيء ... حتى عندما أصادفهُ وألقي عليهِ السلام
- بحكمِ الجيرةِ التي بيننا - يهزُ لي برأسهِ فقط ... وعندما أقفُ بجانبهِ عندَ موقفِ الباص في كلِّ صباح ...

يقفُ جامداً بدونِ حراك ويركزُ بنظرهِ مُتأملاً الأرضَ وكأنهُ إن قامَ برفعِ رأسهِ والنظرِ إلي فسأقومُ بأكله ! .

ضحكةٌ جنونيةٌ أصابت صديقةَ مرام وسطَ محاولاتِها الفاشلة التي تقوم بِها لجذبِ عامر .

- لابدَّ من أنهُ شابٌ خجولٌ كثيراً ... ولا يكلِّمُ الفتيات!

- لا أعلم عنه شيئاً ... ما أعلمهُ فقط أنني تعبتُ من هذهِ الحالة ويجبُ أن أضعَ كبريائي على طرف و أقومَ بمحادثتهِ شخصيّاً .

- أنا سأذهب ... لقد تأخر الوقتُ كثيراً ... أراكِ غداً في العمل .

وقبل أن أنسى ... أتمنى من كلِّ قلبي أن يقولَ لكِ غداً : صباحُ الخير ياجارتي العزيزة !

-اغرُبي عن وجهي ... وسأتحاسبُ معكِ فيما بعد .

حلَ الليلُ مُجدداً ... وكم أنا كارهٌ لكَ أيُّها الليل !
فأنا لستُ مُتسولاً أمامَ بابِكَ لكي تعاملنِي بهذهِ الطريقة .
فأنتَ لا تلقي عليّ سوى الهمومِ والأسى ... فما الذنبُ الذي اقترفتهُ بحقِكَ أخبرني ؟! أو ربما هو يأخذُ بثأركِ يا وسادتي فيعاقبُني مثلما أعاقبُكِ بدموعي !
فلمَ أتسرعُ بالحكمِ عليه ؟! قام (عامر) من فراشهِ وذهبَ نحو نافذةِ غرفتهِ المطلةِ على بيتِ (مرام) .
وفي كل ليلةٍ يراقبُ نظراتِ (مرام) من خلفِ الستائر .
ولكن في هذهِ المرةِ نسيَ نفسهُ وقامَ بإزاحتِها ...لتصطدمَ نظراتهُ بنظراتِ (مرام) مباشرةً ، والتي كانت كلَّ ليلةٍ تسهرُ جالسةً أمامَ نافذتِها إلى حينِ انطفاءِ الأنوارِ في غرفةِ (عامر) ، ...

فيطمئنُ قلبُها وتغفو بهدوء ... ليبعِدَ
(عامر) وجههُ بسرعة ويختفي .
- لمَ رحلتَ هكذا فجأةً ؟! فأنا لم أحظَ بقدرٍ كافٍ
لرؤيةِ وجهِكَ الوسيمِ بعد !! ولكنَّ هذا الأمرَ
رسالةٌ مُبشِّرةٌ لي لأنكَ - أخيراً - قد نظرتَ من
النافذةِ إلى بيتي .
كنتُ سأظنُّ بعد أيامٍ قليلة بأن غرفتَكَ مهجورة ،
وأنَّ ما أراهُ شبحٌ يدخل ويخرج من هذا المكان .
أين ستهربُ مني ؟! " الصبحُ لناظرِهِ قريب" ،
أراك صباحاً وسنتكلم ... أحلاماً سعيدة ياملاكي
الخجول !
أمَّا (عامر) فجلسَ على ركبتيْهِ وظهرهُ قد مسحَ
من جدرانِ غرفتهِ قطعةٌ من سجنهِ الضيق .
- ما الذي تريدهُ هذهِ الفتاةُ مني ؟! إنها على هذا
المنوال منذُ أشهر ...

نظراتُها دائماً موجهةً إلى غرفتي ... هل وقعت في غرامي ياتُرى ؟! لا .. لا .. لا أعتقدُ ذلك ... إذ كيفَ ستقعُ في حبِ أخرسٍ مثلي لايقوى على الكلامِ ليقوى على الحب ؟!! ولكن ربما هي لا تعلم أنني شخصٌ أخرس ، فكيفَ سأخبرُها بذلك ؟! ...اصمت وتوقف عن هذا الهُراء الفارغ يا (عامر) ... كفاكَ أوهاماً ... إنها مجردُ صدَفٍ لا أكثر. ... فكيفَ لفتاةٍ مثلها - تتمتعُ بأنوثةٍ تطغى على جميعِ مساويءِ الدُنيا - أن تحبَ شخصاً مثلَكَ ! .

أعرْني من ثوبِ دفئِكَ بضعَ جمراتٍ ... فبرودةٌ من قطبِ إهمالكِ العلويّ تخلعُ العظامَ من جسدي ! وأشياءُ مُبهَمةٌ تُثقِل كاهلي و تتعبُني ولا أعلمُ ما هي ؟ فمهما تكلّمنا ومهما كانَ هناك من بين البشرِ أشخاصٌ يشعرونَ بنا ، فلا أحدَ يعلمُ ما بدواخلِنا سوى اللّٰه ! ...

فالروائحُ تتصاعدُ من جميعِ أنواعِ الحرائق إلا حريق المشاعر ... نيرانُها لا تُخلِّفُ أيةَ علامةٍ تُشعِرُ الآخرينَ بِألمنا ، لأنَّ هذهِ العلاماتُ تتربصُ بقلوبِنا فقط وإلى الأبد !

وتقومُ (مرام) مجدداً بتمزيقِ الورقة التي أفرغت فيها القليلَ من ضغوطاتِها اليومية .

- يا الله ماذا جرى لي ؟! لِمَ لا أستطيعُ الخلودَ إلى النوم ؟! القلقُ لايفارقُني ... غداً سألتقي بعامر ... ولكنَّ هذا الشيءَ أصبحَ روتيناً وأمراً معتاداً في حياتي ، فما الجديدُ في ذلك ؟! ولكنني غداً سأكلمهُ لأولِ مرة ... فيجب أن أبقى محافظةً على هدوئي وتركيزي .

- عامر : ذكرياتُ النظرةِ الأولى لعينيْها قد أبقتِ الفؤادَ تحتَ أنقاضٍ لا تعلمُ للخروجِ من الأشواقِ طريقاً .

- ورد : عامر ... انظر إِلي ... أتعلمُ شيئاً ؟! لقد كوى القدرُ من جسدِكَ جلوداً ... وأذابَ الدروعَ في صدري ... فلم أستطع أن أحميَ قلبي من الأذى فتخلى عني وأرسلني إلى هنا ... لم أستطع النَّيْلَ من أعدائهِ فانتقمَ مني وأرسلني إلى هنا ! لم أستطع أن أزيحَ عنهُ آثارَ الندوب فأزاحني وأرسلني إلى هنا ! هذا هو الفرقُ الوحيدُ بيننا .

- عامر : لقد بقي قلبُكَ كما كان طوالَ عُمركِ ... أمَّا أنا فآاااهٍ يا (ورد) ! لقد كانَ هذا القلبُ المنطوي بينَ أضعلي ميتاً وكانت عينَاها للقلبِ إنعاشاً ! وصوتٌ كترتيلِ القرآنِ يُسمع إن همست ! فكيفَ لا أحبُّها وهي تراني ملاكاً هبط من الجنةِ إلى الأرضِ بمصادفةٍ ربانية ! وكيفَ سأبقى قاتِلاً بحقِ نفسي والنفسُ لاتهوى قربي بل تهوى قربَها فقط ؟!

إنَّ الذنبَ الوحيد الذي ارتكبتهُ أنني بادلتُها الحُبَّ ومن ثمَ تركتُها خلفي كورقةٍ رمادية لم تُعجب الشجرةَ المثمرة فتخلت عنها ! أريتَ كم أنا شخصٌ بغيض ، مقرف ؟!

- ورد : لا تتكلم عن نفسِكَ بهذهِ الطريقة ... فلسنا نحنُ من نقومُ باختيارِ أقدارِنا لأنَّ الأقدارَ هي من تختارُنا ! ... تُسعِدُ شخصاً وتدمي قلوبَ المئات !

ولكنَّ نهايةَ الجميعِ واحدة ياصديقي : الموت .

وهنا يكمنُ العدلُ الوحيد بيننا جميعاً .

طوبى لأوكارِ الحزنِ التي تبذلُ قُصارَى جهدِها للإيقاعِ بِنا ! وطوبى لأسوارِ الفرحِ التي تبدو شامخةً أمامنا وتمنعُ حتى صدى همساتِنا من ملامسةِ جدرانِها !

نهضَ (عامر) من مخدعهِ ، وبدأ بتمشيطِ شعرهِ بطريقةٍ جنونيَّة ...

وكأنَّ قطعاً من الجليدِ قد فرَّت من براكينِ الحُبِّ وعانقت روحهُ المُخدَّرة ! هكذا شعرَ لوهلةٍ من الزمن ، ومن ثم أسقطَ من نفسهِ هذهِ الأفكار التي ليست من حقِّها أن تقومَ بزيارةِ مريضٍ وحقنهِ بِجرعاتٍ من الأمل لثوانٍ معدودة وهو مريضٌ يائسٌ من شفائهِ ! فأعادَ تسريحةَ شعرهِ كما كانت وخرجَ من المنزلِ بخطواتٍ مُنكسرةٍ كالعادة وبرأسٍ لاتُفارقُ نظراتُ أعينهِ أرضيَّةَ الطرقات ... وعندما قرَّرَ لأولِ مرةٍ استبدالَ موضعِ نظراتهِ ، لمحَ قلبَهُ قبلَ عينهِ ... وفي حالةٍ نادرةٍ من نوعِها وجدَ حريراً أسودَ اللون ... كانَ أكثرَ سواداً من ظلمةِ الليل ... واللمعانُ المُمدَّد على كلِّ خُصلةٍ منها جعلتها بالفعلِ شبيهةً بسماءِ ليلةٍ مرصّعةٍ بالنجوم ...

- أدعى (مرام) و أنا أسكنُ في البيتِ المقابلِ لكم .

لم يتفوه (عامر) بأيةِ كلمة ... وكيفَ سينطقُ وهو لايملكُ لساناً في فمهِ يُعينهُ على الكلام ؟! أصبحَ هذا الفمُ بلا فائدةٍ ولايصلح سوى للطعامِ والشراب ! و (مرام) شعرت بأنَّها فتاةٌ بلهاء وضعت نفسها في موقفٍ محرج .

وضجيجٌ في داخلِها يتوقُ إلى التحدث فلا بدَّ من الكلام :

- الآن قد تأكّدتُ أنكَ لستَ شاباً خجولاً كما كانت تخبرُني عنك صديقتي دوماً ... أنتَ مُتكبر ، مغرور ... فحتى إنْ كُنتَ شاباً وسيماً فهذا لا يمنحك الحقَّ بتجاهلي وعدم الردِّ عليّ ... ولكنَّ الذنبَ ذنبي أنا ! و ما أتمناهُ الآن أن أصرُخَ في وجهِكَ وأُهينكَ أكثر كما فعلتَ معي ... ويالليتني أستطيع ! .

كانَ كلامها نابعاً من عقلِها ... أمَّا حديثُ القلبِ فكانَ شيئاً آخرَ :

- مابِكَ ياملاكي الخجول ؟! تعالَ إلي وألقِ بجميعِ همومِكَ على أكتافي وظهري وفي قلبي لكي نتشاركَ في حملِها سويةً ... وقم بوضعي لمرةٍ واحدةٍ تحتَ التجربة لتتبيَّن مدى صدقي ، وسأضعُكَ تاجاً على قلبي حتى الممات ... واقترب مني خِطوةً واحدةً لأقومَ بنزعِ تلكَ الحدودِ الراغبةِ بالوقوفِ بيننا بكلتا يديَّ وستراني فيما بعد بينَ ذراعيْكَ بمشاعرَ هائجة لا تعرف التوقفَ و لاتودُّ إلا التقرُبَ منكَ أكثر فأكثر ... فالذنبُ ليسَ ذنبي !

واعلمْ أنّني فتاةٌ أنانية عنيدة أحصلُ على ما أريده مهما كانَ الثمنُ يا (عامر) .

وكيفَ تطلبينَ منهُ الاقترابَ يا (مرام) وهو يخافُ كثيراً ؟! يخافُ من الاقترابِ منكِ ولو على بُعدِ أميال ! فتُبعِدُكِ خيباتُ القدرِ عنهُ آلافَ الخطواتِ إلى الوراء ...

حينها سيكونُ (عامر) هو الشهيدُ الوحيد الذي خرجَ حيَّاً من معركةٍ لم يصب أحدٌ فيها بأذى ! .
غبارٌ قد اقتحمَ أعيُنَ (مرام) وسرعانَ ما انهمرتِ الدموعُ ، و أخرجَ (عامر) من جيبِ بنطالهِ منديلاً ناعماً ومدَّ يدهُ لإعطائِها إلى (مرام) .
نظرت (مرام) إليهِ و أزاحت بيديْها شعرَها المتناثر الذي أخفى نصف وجهِها ... وعانقت بدفءِ حركةِ رموشِها حواجبهُ المثبتةَ أعلى طرفيْ عينهِ التي لم تكن عادية هذه المرة ... إنَّها أعينٌ تخفي في مآقيها آباراً من الدموع ... أمسكت (مرام) المنديل وقالت لهُ بنبرةٍ حزينة : شكراً لك .
وها أنت لا تزال ساكتاً للمرةِ الثانية ...فلمَ تحرمُ أذني من سماعِ صوتِكَ ؟! أو ربما أنتَ تتكلمُ معي وتتكلمُ أكثرَ مني حتى ولكنَّ قلبي من شدةِ شوقهِ إليك يمنعُني من الاستماع ...

يرغبُ فقط بتقبيلِ وجهِكَ ... فهو مشغولٌ بكَ أنت ... أنتَ وحدك ... ولا يرغبُ بشيءٍ آخرَ سواك ...

وصَلت (مرام) إلى مكانِ عملها ، وقد نمتْ على وجهِها أغصانٌ من الخيبة .

- ما بكِ ؟ لم يكلِّمْكِ كالعادة ، أليسَ كذلك ؟!

- لقد تكلَّمتُ معه وبقيَ صامتاً دون أيِّ رد .

- لماذا ؟! ألأنّهُ وسيمٌ يتكبّر هكذا لدرجة الوقاحة !

- وأنا أيضاً قلتُ لهُ ذلك .

- هل صرختِ في وجههِ كالمجنونة ؟!

- ليتني فعلتها ... لكنَّ المناظرة الحادّة التي كانت تدور بين قلبي وعقلي منعتني من ذلك ؛ فاكتفيتُ بالوقوفِ جامدةً في مكاني .

- لا تقلقي واتركي هذا الموضوعَ لي ... سأقومُ بجلبِ رقمِ هاتفهِ لكِ .

- ماذا ؟؟؟ كيفَ ستفعلين ذلك ؟

- اعتمدي عليَّ ... فأنا متشوقةً أكثرَ منكِ لكي أعلم حقيقةَ هذا الوسيم الذي لا يتفوهُ بأيةِ كلمة ! هل صوتهُ ساحرٌ إلى هذا الحد ليبخلَ به علينا !

وأمَّا (عامر) ، فلم يذهب إلى عملهِ ... كانَ جالساً على مقعدٍ في حديقةٍ فارغة يحاكي نفسه :

- بمجرد عدمِ ردّي عليها تمكنتْ منها خيبةٌ من خيبات القدر ... ماذا سيحصلُ لكِ يا (مرام) إن علمتِ أنني شخصٌ أخرس ولستُ شاباً متكبّراً كما تظنين وكما تصفينني ضمنَ أحاديثكِ المُضمرة ... صحيحٌ أنني أخرس ولكنني أجيدُ قراءةَ ملامحِ الوجوهِ جيداً وماتخفي وراءها من كلمات ... يجب عليَّ النهوضُ الآن يا (مرام) واستبدال مساري بطريقٍ آخرَ فعلى دروبِ الحُبِّ لا مكانَ محجوزٌ لي بينهم .

لم يكن بخبيرٍ عسكريٍّ ولا خبيرَ علمٍ أو دين ... كان فقط خبيراً في الحزن ...

وفي علومِ الأحزان لا مكانَ للحُبِّ ولا في أيِّ مصطلحٍ بسيطٍ يميلُ في بعضِ جوانبهِ إلى السعادة .

- عامر : في ذلكَ اليومِ تحديداً اتخذتُ قراراً حازماً باستبدالِ الوجهةِ في السير ... ولكنَّ القدرَ أبعدني وهو ما زادَ الأمرَ صعوبة .

- ورد : وماذا حصل ؟ ...

- عامر : القدرُ قد خانني ، وقامَ بوضعِ فؤادي تحتَ رحمةِ ما يسمّى (الحُبّ) ... ولم يفكر مجردَ تفكير بسيط أن يستجيب إلى القراراتِ الصارمةِ في عقلي !

نغمةُ رنينٍ قد صدرت من هاتفِ (عامر) ...

رسالةٌ مبعوثةٌ من رقمٍ غريب تحملُ في مضمونِها الكلامَ الآتي :

- إلى متى ستتخذُ طُرقاً غريبةً في التهربِ مني؟!

اعلم جيداً يا (عامر) أنّكَ مهما سلكتَ طرقاً مختلفةً للابتعادِ عني فستراني واقفةً أمامَ وجهِكَ في نهايةِ كلِّ طريق ...

فبسببِ تجاهُلِكَ لي عمداً ؛ كثرت الجروحُ في داخلي وأنتَ الضِمادُ الوحيدُ لها .

أمسكَ (عامر) بهاتفهِ وبدأ يكتبُ لها :

- أراكِ غداً في الحديقةِ المجاورةِ لموقفِ الحافلة ... أحلاماً سعيدةً يا (مرام) .

قفزت (مرام) من سريرِها فرِحةً بما قد رأته عيناها ... وتجمدت في مكانِها فجأةً :

- كيفَ عرفَ أنَّ الرسالة مُرسَلةٌ منِّي ؟! هل كان ملاحظاً لتصرفاتي العفويةِ معهُ ؟! لا يهم ، سأتحققُ من ذلك غداً ومن كلِّ الأمورِ التي جرت .

قامت بفتحِ خزائنِ ملابسِها ، ووضعت كلَّ الثياب على السرير وهي محتارةٌ في أمرِها ماذا سترتدي ؟! فإنَّ اللقاءَ المنتَظَرَ بملا كها الخجولِ سيتمُّ غداً بعد أشهرٍ طويلةٍ من التودُّدِ إليه .

- لقد تأخرَ الغدُ كثيراً ... ظننتُ أنَّهُ لن يأتي و لن أحظى بفرصةِ الجلوسِ معكَ الآن ... تُرى ماذا عن شعورِكَ أنت أكان الشيءَ نفسه ؟!

أخرجَ (عامر) من جيبهِ ورقةً وقلماً وكتبَ فيها :

- (مرام) أنا لستُ بشابٍ مُتكبِّر .... أنا لا أستطيعُ الكلامَ فقط ، أنا أخرس ... عاجزٌ عن النطق كلّيّاً .

وقامَ بتمريرِ الورقةِ على الطاولة ، ووضعها أمامَ ناظريْ (مرام) التي أخذت الورقة بلهفة شديدة وبدأت بقراءتها .

وما هي إلا لحظاتٌ قليلة حتى شعرَ (عامر) بأنَّها تخوضُ معارِكَ قاسيةً مع كلِّ حرفٍ تقرأهُ ... معارك شرسة مع نصيبِها السيءِ من القدر ! أدارت (مرام) برأسِها إلى الاتجاهِ الآخر لكي تخفيَ دموعها عن (عامر) ، وأصبحت تجففُها برؤوسِ أصابعِها ...

وأخذَ (عامر) الورقةَ من يديْها ، وبدأ الكتابةِ عليْها مرةً أخرى و (مرام) تتابعه وتقرأُ معهُ :

- كنتُ مُلاحظاً لجميعِ تصرفاتكِ ... وأعلمُ أنكِ قد وقعتِ في حبي من المظهرِ فقط ... من دونِ أن تعلمِي شيئاً عن حقيقةِ أمري .

ولكنْ في بعضِ الأحيانِ ... الظاهرُ وحده لا يكفي ...اذهبِي بعيداً عني فالحياةُ مليئةٌ بالفرص ... وأنا لستُ فرصتكِ الوحيدة !!! وداعاً ...

نهضَ (عامر) من مقعدهِ وبدأ بالسير ... ثمَّ تَبِعتْهُ (مرام) مسرعةً و قامت باحتضانهِ من الخلف .

- اللّهُ وحدهُ يعلم منذ متى وأنتَ تسكنُ في قلبي يا (عامر) ! ... أنا لا أريدُ حباً أنتَ لستَ بطلَ القصَّةِ فيها ... ولا أريدُ جنةً ليسَ لكَ وجودٌ فيها ... ولا أريدُ حياةً إلا بقربِكَ أنت .

التفَتَ (عامر) وأمسكَ بيديْها وأجلسها على المقعد ... وبدأ يكتب :

- وأنا أيضاً صدِّقيني ... مالَ القلبُ واتّكأ على أكتافكِ من أولِ مرةٍ رأيتُكِ فيها ...

وتخلى عن معظمِ أوردتهِ واتَّخذَ من خُصلاتِ شعركِ شراييناً له بدلاً عنها ... أقفُ بجانبِكِ كلَّ صباح لتبدأ رحلةُ السفرِ في طائرةٍ خياليةٍ خاليةٍ من الركاب ... فارغةٍ ... لاتحوي شيئاً إلا عطرَكِ و أنا....

نعم ، كنتُ المسافرَ الوحيدَ فيها ... أشمُّ ذراتِ عطركِ بشغفٍ في كلِّ الأنحاء ! وقلبٌ بينَ أضلعي يتوسلُ للخالقِ راجياً أن تتأخَّرَ الحافلةُ في القدومِ قليلاً ... كنتُ أكابرُ على نفسي وأمتنعُ عن التفكيرِ فيكِ ... لأنني لستُ بظالمٍ يا (مرام) ... لستُ بظالم ... أفضِّلُ الموتَ ألفَ مرة على أن أقومَ بظلمِ أحدهم معي يوماً .

وضعت (مرام) يدها على فمِ (عامر) :

- أرجوكَ اسكت ... ولاتقل مثلَ هذا الكلامِ مرةً أخرى ... ولا تظنَّ أنني بكيتُ لأنَّكَ لاتقوى على الكلام ... لقد بكيتُ لأنني ظلمتُكَ كثيراً بتفكيري في الفترةِ السابقة ... فأنتَ قدري ولن أرضى عنكَ بديلاً ...

كن لي ؛ وسأجعلُكَ تنسى جميعَ الأوجاعِ التي بقيت مستيقظةً في داخلِكَ بينما أنتَ كنتَ نائماً .

كن لي ؛ وسأقفُ في وجهِ كلِّ غصةٍ تتمنى الغفوةَ على غصنٍ من أغصانِ فؤادِكَ ... فوصيةٌ من وصايا الهوى يا (عامر) أوصت قلبي بعدمِ التّخلّي عنك .

- عامر : مضت الأيامُ والأشهرُ بسرعةٍ جنونية ... كنتُ أشعرُ بولادةٍ جديدةٍ للفرحِ تتسرَّبُ إلى قلبي ... و (مرام) لم تتوقّف يوماً عن إعطائي الحنانَ المسلوبَ مني ... وأثبتت لي أنَّ الحبَّ لا يعرفُ المستحيلَ ... وأنَّ الحُبَّ يُّوضعُ في قلوبِ البشر من دونِ أحكامٍ أو شروط ... يأتي مع بضعِ نسماتٍ عليلة وينغرسُ في جذورِ الفؤادِ بقوة ...

ولن تستطيع نزعَها رياحُ الأرضِ حتى إن اجتمعت سويةً ..

- ورد : قلوبُنا تُباع للحُبِّ في وهلة ، وفيما بعد يشتريها أصحابُ الألمِ والأسى في وهلةٍ أيضاً ... فلا تحزن ياصديقي ، وكن متفائلاً لأنَّ (مرام) عاجلاً أم آجلاً ستلحق بك و تصعدُ إلى هنا ... وصدِّقني ، ستكونُ من أسعدِ الأشخاصِ في هذا العالمِ الكئيب إن رأتكَ وسمِعت عذوبةَ صوتَكَ السَّاحر .

آهاتٌ في حناجرِنا مسجونة ... قد سئِمت من ضَعفِنا و تسعى إلى الحريةِ بأيةِ وسيلة ... تتمنى التَّحرُّرَ منا فقط ... ولكننا جبناءٌ بالفطرة لانقوى على شيء .

- لا تقم بالكتابةِ يا (عامر) ، أنا أعلمُ ما ستكتب ... وأنا أحبُّكَ أيضاً ... وتريدُ أن تسألني إن كانَ والداي سيقبلانِ بكَ زوجاً لي ... أليسَ كذلك ؟!

هزَّ (عامر) لمرام برأسهِ.

- لا تقلق يا سعادةَ عمري ، وكن مطمئناً .

إنَّ محبوبتكَ ستفعلُ المستحيل لتصبحَ زوجةً لك ... والآن يجب أن نعودَ إلى المنزل .

طريقٌ ينخرُ اليأسُ زواياه ... فلا عودةَ إلى ماقد مضى ولا أملَ فيما سيأتي ... سنبقى جالسين في المنتصفِ وحرائقٌ تفتكُ بجوارحنا ... لا يمينٌ يخفي ذرةً من الفرح ... ولا يسارٌ يستحقُ النظرَ في أمرهِ حتى .

- يالكِ من فتاةٍ مجنونةٍ حمقاءَ يا (مرام) حتى تعشقي شاباً أخرس وتقبلي بهِ زوجاً !!!

- هذا الكلامُ أسمعهُ منكِ منذُ أكثرَ من سنة منذُ بدايةِ علاقتي مع (عامر) ؛ ... وأنتِ تعلمينَ جيداً ياصديقتي أنَّ (عامر) هو الشابُ الوحيد الذي تمكّنَ من سرقةِ فؤادي من بين جميعِ هؤلاءِ الشبَّان الذينَ كانوا يتودَّدونَ إليّ .

- ولكنَّ الزّواجَ أمرٌ آخر تماماً ، فالحياةُ الزوجيَّة لها متطلَّباتها ولن تستطيعي التّعايش مع وضعٍ كهذا مدى العمر ... هذا ليسَ حبّاً يا (مرام) صدقيني ... هذهِ مجردُ شفقة ؛ فأنتِ تشفقينَ على حالةِ (عامر) فحسب لا أكثر .

- أنا متأكدةٌ من مشاعر قلبي ... ولولا هذا لم أكن لأظلمَ (عامر) معي فهو لا يستحقُ إلا الفرح .
لا بدَّ من الحقيقةِ أن تباغتَ رذيلةَ الغدرِ يوماً وتصعدَ مكانَ الشمسِ وتشرق ... فأيَّام العُمر كثيرة ، والحقيقةُ دوماً تحجزُ لنفسِها يوماً ما منها .
- ماذا تريدُ مني ؟ ماذا تريدُ أكثرَ مما فعلت ؟ ولدي الوحيد وبترتَ لسانهُ بسببي ... كم كنتُ مغفلاً عندما وثقتُ بِكَ ... إنهُ يعاني الآن بسببي أنا ... أسمعُ أصواتَ الأنين وهي صادرةٌ من غرفتهِ كلَّ ليلة ... إياكَ والتفكيرَ برؤيتي يوماً ...
لأنني أعدُكَ بأنَّ وجهي سيكونُ آخرَ شيءٍ تراهُ عيناك .
كانَ (عامر) واقفاً عند زاويةِ بابِ الغرفة ؛ وقد سمِعَ مكالمةَ أبيهِ على الهاتف كاملةً .

صداعٌ قد اقتحمَ رأسهُ وأفزع قلبَهُ .... أصبحَ يمشي مترنِّحاً من الألمِ كمريضٍ نفسيٍّ وهو مستندٌ بيديْهِ كلتيْهما على الجدران ... والدموعُ قد أغرقت الوجه وبلَّلت الرموش ... وقعَ على الأرضِ بروحٍ تائهةٍ لاتعلمُ إلى أينَ المسير ... بروحٍ قد تجاوزت الآن حدودَ الوجعِ بمئاتٍ من الأميال ؛ فلم يعد الموضوعُ موضوعَ وجعٍ فقط .... لقد شابَ السَّوادُ في عينَيْهِ ولم يبقَ إلا البياضِ مُنتشراً .

أصواتُ سياراتِ الإسعافِ قد ملأت الأرجاء عند بيتِ عامر .... سارعت (مرام) وقامت بفتحِ نافذةِ غرفتِها ... صرخاتٌ من والدةِ (عامر) حرَّضت حتى الأحجارَ على البكاء .... و (مرام) رأت سريراً متنقلاً يخرجُ من منزلِ حبيبها .

إنّه (عامر) ، ممدَّدٌ عليهِ وأشبهُ بجثّةٍ لاتستطيعُ الحراك ... فكادت أن تلقيَ بنفسِها إلى خارجِ النافذة ... و بطريقةٍ جنونية غادرت حُجرتِها ...

نزلت وفتحت بابَ المنزل وركضت خلفَ سيارةِ الإسعاف وجلست بجانبِ (عامر) وأمسكت بيدهِ .
- أين تنوي الرحيلَ يا شمسَ أيامي ؟! ماذا أصابكَ ياقرَّةَ عيني؟ لقد تركتُكَ منذُ قليل ولم تكن تشتكي من شيء ..
فإن كنتَ تريدُ الابتعادَ عنِّي يا (عامر) ، وتريدُ أن تسلكَ طريقاً لا وجودَ لي في نهايتها فخذني معك لأكونَ لكَ البداية .
صحراءٌ قاحلةٌ لا وجودَ لأثرِ الحياةِ فيها إلا منَّا نحنُ ... وأحزانٌ متيقظة ... مترقِّبة لفريسةٍ أخرى ...
أعدكم بأنَّكم لن تنشغلوا باصطيادي فها أنا قادمٌ إليكم على قدميَّ ... أفضِّلُ العيشَ بينكم ... فالحياةُ أشدُ حزناً منكم .
خرجَ الطبيبُ من غرفةِ (عامر) وركض الجميعُ إليهِ ...

و (مرام) سبقتهم وسألت الطبيب ... وتلعثمُ على هيئةِ انكسارٍ قد أظهرَ الخوفَ في كلامِها :

- ماذا أصابَ عامر ؟ .. لمَ يبدو نائِماً بهذا الشكل؟!

- بسببِ جلطةٍ دماغية كانت قويةً جداً ... لا أخفي عليكم وضعهُ لا يبشِّرُ بالخيرِ أبداً ... سنقومُ بنقلهِ الآن إلى غرفةِ العنايةِ المشددة .

الضعفُ بقبضةِ كفهِ قد لكمَ جميعَ أجزاءِ القوةِ في جسدِ (مرام) ونالَ منها ... جلست على ركبتيْها فلا حيلةَ للصمودِ أمامَ هكذا خبر ... خالعةً عن نفسِها أثوابَ الأمل وتاركةً بحبِّ حياتِها تحتَ تصرفِ القدر ... وها هي تُتمتمُ باسمِ (عامر) .

وأصبحت غيرَ قادرةٍ على فتحِ أعينها بالكامل ... كسجينةٍ لم ترَ النُورَ منذُ سنوات ...

وها هي (مرام) تحاولُ النهوض والتغلبَ على ضعفِ جسدِها ...

وتسلَّلت إلى غرفةِ (عامر) خفيةً ... قامت بفتحِ الباب ، ورأت ملاكَها الخجول محاطاً بالأجهزةِ الطبية من كلِّ مكان ... واللونُ الأخضرُ موزَّعٌ في كلِّ أنحاء الغرفة ... جلست بجانبهِ على السرير هامسةً :

- عامر ... اشتقتُ إليكَ من الآن ... ودخانُ نيرانِ الصَّبابِ في فؤادي يتصاعدُ إلى حُنجرتي من الآن ... فلا تفكر بالرحيلِ عني أبداً ... أرجوك ... أرجوك فأنا لستُ قويةً كما كنتَ تعتقد ... لن أتمّكنَ من العيشِ وأنتَ لستَ بجانبي ... ولن أتمكَّنَ من وضعِ أقدامي في ميادينِ الحُبِّ وأنتَ لستَ بجانبي

... لن أتمكَّنَ من النظرِ إلى قمرِ السماءِ وقمرُ قلبي غائبٌ عني .... أخاف .... أخافُ يا (عامر) من البقاءِ وحدي ... فوحدةُ الروحِ صعبةٌ جداً بعد ملاقاتِها لشريك ... وأنتَ لم تكن مجردَ شريكٍ لروحي ... كنتَ لي نبضاً يعينُ قلبي على العيش، فلن أتمكَّنَ من العيشِ مجدداً بفؤادٍ لا ينبض ...

وكنتَ لي النَفَسَ الذي يقاسمُني رئتي المتحجِّرةَ ، فلن أتمكنَ من العيشِ مجدداً بدون هذا النَفَس ... لا أريدُ أن أعودَ كما كنت ... لأنني لم أكن بخير عندما كنتُ كذلك .

كانت (مرام) تتكلم و (عامر) ينصتُ إليها دون أن يستطيعَ التحرُّكَ أو الكلام ... وحدها الدموعُ تتساقطُ من عينيْهِ المغمضتيْن ، وتتكلمُ نيابةً عنهُ ... دموعٌ لا ترمِّمُ ما انهدمَ في داخلهِ ، وتجاهدُ في سبيلِ عودةِ السّواد إلى بؤبؤِ عينيْه .

فالبياضُ لا يشيرُ إلى الخيرِ دائماً ! وها هو يأخذُ شهيقاً وزفيراً بصعوبة بالغة مع اضطرابٍ كلّيٍّ في أجزاء جسدهِ العلوي ، وكأنَّ روحهُ هي المخطئة ويتوجب عليها تحمُّل العذاب لكي تصعدَ طاهرةً إلى السماء ... وجمدت (مرام) في مكانها كتمثالٍ خشبيٍّ من هولِ ما ترى ...

متأملةً تفاصيلَ الوجعِ على ملامحِ حبيبِها ... إنهُ يرحل وهي تدرك ذلك ؛ فستائرُ قلبها قد انزاحت ، وفاضَ هذا القلبُ بأفظعِ درجاتِ الخوف .

نعم ؛ مشاعرٌ من الرعبِ والألمِ قد تآمرت عليها وهي ترى حُبَّ حياتِها يرحل أمامها ... عاجزةً هي الآن عن فعلِ أيِّ شيء لإنقاذهِ كعجزِ (نور) عن النهوضِ من بينِ نيرانٍ قد أحرقتها قبلَ الوصولِ إليها حتى ! وصوتُ صفيرٍ مزعجٍ قد صدر من جميعِ الأجهزة مُعلناً نهايةَ حياةِ (عامر) وفي الوقت ذاتِهِ كان إعلاناً لانتهاءِ بصيص السعادةِ في حياةِ (مرام) و الحكم عليه بعدمِ الاقترابِ منها مرةً أخرى !

هي أيضاً قد رحلت برحيلهِ ... تصرخُ الآن وتلطمُ وجهها راجيةً عودةَ (عامر) - كما كانت (نور) تلطمُ نوافذَ غرفتِها راجيةً الخلاصَ فقط-

وها هي تصرخُ صرخاتٍ مدوّية أكثر، و رعودُ صرخاتِها أذابت حتى الحُطامَ في داخلِها ... تصرخ من الألم تماماً مثلَ (نور) .

تابوتٌ محمولٌ على الأكتاف ... ونظراتٌ تصارعُ الكواكبَ وما حولها من تمدُّد ... ووالدةُ (عامر) تزحفُ بجسدِها خلفَ جثمانِ ولدِها الوحيد ... إنّها ترفعُ يديْها لتلمسَ الشمس ... فوجهُ (عامر) باتَ يسكنُ هناك .

و (مرام) تمشي تائهة بلا وعي والمدنُ الورديّة في أروقةِ قلبِها قد دُمِّرت ... تمشي وتُراكِمُ على نفسِها آثارَ الخراب ... وها هم يضعونَ تابوتَ (عامر) في القبر، ويلقونَ بالترابِ على وجههِ وكأنه لم يكن شيئاً في هذه الحياة ... والآلامُ تغفو مطمئنةً على كلِّ زوايةٍ من جسدهِ الطاهر .

- عامر : وهكذا كانت النهاية يا (ورد) .
مضت سنةٌ كاملة وأنا هنا برفقتِكَ ... أتُصدق أنني إلى الآن لم أجرؤ على زيارةِ (مرام) لأنني بكلِّ بساطة لا أستحقُ الموتَ مرَّتين .
- أينَ هي(مرام) ؟ إنني أقومُ بالاتصالِ بها منذُ البارحة وهي تقومُ بفصلِ المكالمةِ في وجهي دوماً.
- آهٍ من (مرام) يا ابنتي ! منذُ موتِ (عامر) وهي على هذهِ الحالة ... في الصباحِ تبكي جالسةً عند قبرهِ ، وفي المساءِ تجلسُ بقربِ نافذتِها وتتكلمُ مع نفسِها مثلَ المجنونة ...
وتتخيَّلُ بأنَّ (عامر) لم يمت ، وأنهُ يعودُ إلى المنزل ويكلِّمُها كالعادة من خلفِ نافذةِ غرفتهِ !
- أفهمُ من كلامكِ أنَّها الآن جالسةٌ بجوارِ القبر ؟!
- نعم ، أرجوكِ اذهبِي إليها ، وحاولي مساعدتها للتخلّص من هذه الأوهام .

- لا تقلقي ، فمرام بمثابةِ أختي وأنتِ أمي الثانية ... سأسعى جاهدةً لتعودَ (مرام) إلى وعيها ... أعدُكِ بذلك .

وعندَ قبرِ (عامر) جالسةٌ (مرام) ، وتحتضنُ بيديْها حفنةُ ترابٍ من قبرهِ ... وإن كانت أنفاسُها تملكُ فماً ما كانت هذهِ الحباتُ لتبقى في يديها ... وآثارٌ شاحبةٌ قد أعلنتِ الغزوَ والهجومَ على ملامحِ وجهِها الملائكيّ .

- يا فؤادي أخبرني : هل تشعرُ بالبرودة لأغطي عظامَكَ برموشِ عيني ؟! ... أتعلمُ شيئاً ؟ مثلما كنتُ أستطيعُ قراءةَ ملامحِ وجهِكَ من دونِ أن تتكلم ... الآن أشعر بأن روحُكَ لاترغبُ بزيارتي ... فأنتَ تخاف أن ترى حالتي كيفَ تدهورت .

وضعت الصديقةُ يدها على كتفَيْ (مرام) :

- إلى متى ستعذِّبينَ روحَ (عامر) هكذا ؟! ألا يكفيهِ ما أخذَ من أوجاعٍ في هذهِ الدُنيا ؟!

- متى ستفهمون أنَّ (عامر) لم يمت ... لم يمت ... إنهُ فقط يتهرَّبُ من ألسنةِ البشر الجارحة ...إنه يأتي إلى هنا و يرقدُ بين أحضانِ هذا التراب ، وفي المساء يعودُ إلى المنزل مشتاقاً إليَّ ويحدِّثني عن كلِّ شيء .

وفي برهةٍ قصيرةٍ من الزمن سقطت دمعةٌ تائهةٌ من أعينِ (مرام) ، وأيقظتها من أحلامِها الخيالية لتقولَ في نفسِها : " ياليتني كنتُ معكَ أسفلَ هذا الترابِ ياقطعةً من روحي ... ياكلَّ فؤادي ! فالعزاءُ على فراقِكَ سيبقى مُقيماً خلفَ كل شبرٍ مني أيامٌ أخذت منَّا كلَّ شيء : الفرحةَ والابتسامةَ وحتى اللحظاتِ المجنونة ... أصبحنا نمشي على ترابٍ من نار وفي قلوبِنا أشواكٌ مدفونة ... فمهما بدَّلنا بينَ أنماطِ الواقع وادَّعَينا التغيير ، ستبقى الأعينُ بالأدمُعِ مسكونة .

كلُّ شخصٍ على معرفةٍ جيِّدةٍ بمرام كانَ يراهن أنَّها بمرورِ الأيام ستكرهُ (عامر) و ستنساه وتملّ من ذكرِ اسمِهِ ؛ لأنّه في النهاية عبارةٌ عن شخصٍ أخرس ولكنَّ (مرام) لم تكن من هذا النوعِ من النساء ، كانت من صنفٍ آخرَ يعشقُ الروح ولا يهتمُّ بالمظاهر الزّائفة كما كان (عامر) يظن .

- ورد : في مسيرةِ حياةِ كلِّ شخصٍ منّا يعيشُ على أرضِ هذهِ الدُّنيا سيصادفُ ملاكاً وأطيافاً متنوعةٌ من البشر .

ربما لن يكونَ الملاكُ حسنَ المظهر وربما الشخصُ الذي سيلتقي بهِ الملاك أيضاً كذلك على هيئةٍ غير مألوفة .

ولكنَّ هذا الملاكَ يعشقُ ويتعلَّقُ بالروح ، ولا يهتمُ بالقشور ولا المظاهر كيفما كانت وكيفما بدت .

على خلافِ آخرينَ من البشرِ يقدّسونَ الجمالَ الخارجيّ وأساليبَ الإغراءِ الساحرة والوجهَ الحسن ... وهذهِ الباقةُ من البشر أعدادهم لا تحصى ؛ يأتون ويذهبونَ بلمحِ البصر .

يرحلون بكلِّ سهولة مع أيِّ عيبٍ بسيطٍ يصيبُ هذه المظاهرَ التي أحبُّوها .

فتمسَّكْ بذلك الملاك الذي أحبَّ روحَكَ وليسَ مظهركَ الخلاب ؛ لأنهُ لن يتكرر ، ولن يأتي أحدٌ آخر مثلهُ .

فإن خسرتهُ فاعلم أنكَ قد خسرتَ سببَ سعادتكَ الحقيقيّة لبقيةِ حياتك ... عِش العمرَ معهُ فربما غداً يكونُ برفقتِكَ أو لا يكون .

- نور : لم أتجاوز الخامسةَ والعشرينَ من عمري وقد سلبني الموتُ حياتي وأنا في هذا العمر المبكّر. لم يحصل لي شرفُ الالتقاءِ بهؤلاءِ الملائكة ! كنتُ أعيشُ بينَ الشياطين ، فكيفَ للملائكةِ أن تحضُر ؟!

- سارة : ملاكي (سالم) كانَ على هيئةٍ لا مثيلَ لها ؛ فقد هبطَ من رحِمي ، من جزءٍ مني ... وبعد رحيلهِ حتى أنوارُ الشمسِ أصبحت مظلمةً في عيني !.

- عامر : لِمَ حصلَ معنا ذلك ؟ بماذا أخطأنا ؟! لمَ دفعنا الثمنَ غالياً من سعادتنا ؟! ونحنُ لم نأخذ من السوءِ غرضاً ... هل كنَّا أحجاراً أم بشراً لتتهافت المصائبُ على رؤوسِنا بهذا الكمِّ الهائل !.

- ورد : لم نكن كذلك يا (عامر) ، نحنُ كنَّا مجردَ قلوبٍ أحرقتها نيرانُ القدر !.

- لقد سمعتُ قصةَ سارة و نور و عامر ... ولكن ياتُرى ماذا يخفي (ورد) ، وما قصّته ؟!

- أنا أكثرُ مِنكَ تساؤلاً ، وبات الفضولُ يخنقُني ... أريدُ أن أعرفَ مأساتهُ ؛ إنهُ يجلسُ مع الجميع طيلةَ الوقت ، يحاورهم ويزوِّدُهم بجرعاتٍ من الأملِ وهو نفسهُ لايملكُ من الأملِ أدنى ذرّة ! حتى كلماتهُ وأحاديثهُ مختلفة ... فهو يمتلكُ نبرةً مميَّزة ؛ إنهُ يتكلمُ كالشعراء !

- ما الحلُّ إذاً لنشبعَ فضولنا ؟!

- يوجدُ حلٌّ وحيدٌ فقط نستطيعُ من خلالهِ أن نعلم ماذا يخفي ، ... ونرى بأعيننا تفاصيلَ حياتهِ وما جرى له منذُ ولادتهِ إلى حينِ وفاتهِ .

- وكيفَ ذلك ؟

- سنذهبُ إلى الملكَيْنِ اللذَينِ كانا مسؤولَيْنِ عن (ورد) وسنطلبُ منهما رؤيةَ مسيرةِ حياتهِ في الدُنيا بالكامل .

- وهل سيوافقان على اطلاعِنا على معلوماتٍ وأمور لا تخصُّنا ؟!

- ولمَ لا ؟! فنحنُ أيضاً ملائكةٌ مثلهم .

و بالعودةِ إلى ماقبلَ البرزخِ بسبعِ سنوات ... أو بالأحرى ماقبلَ البرزخِ بأربعةٍ وثمانينَ عاماً من الحرائق ؛ فكلُّ سنةٍ تحوي على اثنيْ عشر حريقاً ... وكلُّ شهرٍ يحوي على ثلاثينَ جانباً مشوَّهاً على هيئةِ حريقٍ واحد يمتلكُ أبشعَ الوجوهِ والمناظر ، وألسنةٍ من اللهب و قرنيْنِ من اليأسِ والظلم .

الحزنُ دخلَ إلى جسدي ، وبدأ ينمو في عقلي ، ليسيطرَ على قلبي ... وحفرَ عميقاً في دفترِ فؤادي ! الحزنُ خُلِقَ للكثيرين لكِنك الشخصُ الوحيد الذي لن تتجاوزهُ بسهولة .

فتح (ورد) أعينهُ واستيقظَ من النوم ... وكانت هذهِ مجردَ عباراتٍ تشبهُ الكوابيس .

نهضَ (ورد) مسرعاً وقال في نفسه : لقد تأخرتُ عن دوامِ جامعتِي ... ماذا حلَّ بي اليوم ؟!! لمَ لا أرى سوى الكوابيس ؟!

خرجَ (ورد) من منزلهِ وبدأ يسلكُ الطريقَ العام مُتجهاً إلى جامعتهِ ... ليُصادفَ أمراً غريباً على أطرافِ الطريق ... شخصٌ جالسٌ يضربُ رأسهُ بيديْه ... وكأنَّما جاءَ ليحوِّلَ تلكَ الكوابيس إلى حقيقةٍ متجسِّدةٍ على أرضِ الواقع .

انتابت (ورد) مشاعرُ من الدهشةِ والاستغراب ... فهذا الطريقُ - تحديداً - لا يسلكهُ أحدٌ من المشاة أو من النادرِ أن أصادفَ شاباً يمشي هنا ليختصرَ مثلي الطريقَ إلى الجامعة ... فكيفَ لرجلٍ مثلَ هذا قد تجاوزَ الخمسين من العمر أن يجلسَ هنا ؟! ...

نهضَ هذا الرجلُ فجأةً ، ووقفَ في منتصفِ الطريق مُحاولاً الانتحار ...

بدا يائساً وكأنَّما الدُنيا قد ضيَّقت الخناقَ عليه كثيراً ... أسرعَ (ورد) باتجاههِ وأمسكَ بيدهِ و قام بسحبهِ إلى جهتهِ ...صرخَ ذلك الرجل بلهجةٍ غريبة :

- دعني وشأني ، ابتعد عني ، لا أريدُ العيش ... ألا تفهمون ... لا أريدُ البقاء على قيد الحياة ... أريدُ الموت لأرتاح .

- لاتكلِّمني هكذا ، واهدأ قليلاً وأخبرني ما بك ؟

- لا أريدُ العيشَ في عالمٍ بلا رحمة وبين قلوبٍ أقسى من الحجر ... لا أريدُ العيشَ في عالمٍ لا يقيم وزناً للفقير ! .

- يا عم أنا بعمرِ ولدِكَ ... وأرغب بمساعدتك .

- كيف ستساعدني وولدي يموتُ ألفَ مرةٍ في اليومِ الواحد بسببِ مرضهِ المزمن ! وأنا أنظرُ إليهِ مكتوفَ اليدين لا أقوى على فعلِ أيِّ شيءٍ لخلاصهِ ! كأنَّ الذنوبُ تتطفلُ على عظامِ جسدي ...

أصبحتُ هشاً من الداخل يصعبُ عليَّ الوقوفَ حتى .

- لاتبكِ يا عم ... امسح دموعك وأخبرني من أيِّ مرضٍ يشكو ولدك ؟

- إنهُ مريضٌ بالسرطان ... والجرعاتُ الكيماوية لم تعد تنفعهُ بشيء ... وحتى أنني لا أملك ثمنها ! فلقد بعتُ كلَّ ما لديَّ ولم أستطع أن أنقذهُ من هذا المرض ... لأن السرطانُ قد تحولَ في جسدهِ إلى ذئبٍ ذي أنيابٍ حادة يمزقُ بها ما يشاء ويغرسُها أينما يشاء ..... أتصدق ؟ لقد بقيت من رموشهِ شعرةٌ واحدةٌ يتيمة يعتني بها في كلِّ صباح ويخافُ من سقوطِها أيضاً ... ودائماً يسألني : أبي لمَ أبدو قبيحاً هكذا ؟

راودَ (ورد) شعورٌ غريب وبدأ يغوصُ في متاهاتِ التفكير باحثاً عن النجاةِ من جميعِ الأمورِ التي تحدثُ من حولِنا ...

ماذنبُ هذا الرجل أن يحترقَ هكذا بصمت، وأن يقفَ عاجزاً غيرَ مدركٍ كيفية الخلاصَ ؟! أن يعجزَ عن الهروبِ من الحريقِ في داخلهِ حتى ... ما ذنبهُ أن يقفَ كأحمقٍ لا يجيدُ التصرف ؟! ما ذنبُ ملاكهِ الصغير حتى يعاني و يتعذبَ هكذا ؟! وأن يمزقَ السرطان أعضاءَ جسدهِ هكذا ... فلا الحياةُ رحيمةً بِنا ولا الموتُ أرحم .

قاطعت مكالمةٌ هاتفية للرجل أفكارَ (ورد) العشوائية ... حملَ الرجلُ هاتفهُ وقامَ بالرد ليسمعَ صوتَ الممرضة وهي تقول : نحنُ متأسفونَ جداً ... لم نستطع إنقاذَ ولدِكَ من الهلاك .

تنهيدةٌ عميقة خرجت من حنجرة هذا الأب ، وكأنَّ السرطان الذي أودى بحياة الابن احتلُ حنجرته ... فأصبحَ كالمجنون يتلفَّتُ حولَ نفسهِ ولايعلمُ ماذا يفعل ؟! ...

يبكي لثوانٍ معدودة ويضحكُ في ثوانٍ أخرى ! ثم أسرعَ ورمى بجسدهِ تحتَ رحمةِ عجلةِ سيارةٍ مسرعة ، وفارقَ الحياةَ وهو يلفظ مع أخرِ نفسٍ : أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنني عجزتُ عن إنقاذِكَ يا ولدي ! .

حملَ (ورد) جثَّتهُ بيديهِ ، وكأنَّ والدهُ هو المتوفّى .

- ورد : لم يحتمل أبوكَ العيشَ من دونِكَ لمجردِ ثوانٍ معدودة ، أرأيت ذلك؟! وها هي روحهُ تصعدُ برفقتِكَ إلى السماءِ السابعة لعلكم تجدونَ الخلاصَ هناك ... ولعلكم تجدونَ العدلَ هناك ... فنحنُ لا نعيشُ على أرضٍ تحوي كائناتٍ مسالمة ومُحبةٍ للخير كما يدَّعون ... بل نعيشُ في غابةٍ تحوي على أسُودٍ متوحشة تنقضُّ على غزلانٍ بريئة تقضي أيامِها وهي لا تفكرُ سوى بالهروبِ والتخفي ! .

لم تعد أشعةُ الشمسِ تتجاوزُ قضبانَ الجسد ؛ فالأحزانُ قد بنتْ جدراناً من جمرٍ ملتهب وسدَّت بِها جميعَ الثقوب .

- سلمى : مابِكَ يا (ورد) ؟! لِمَ أشعرُ أنّ الدموع نالت منك اليوم ؟

- ريتاج : ألم تتعوَّدي على (ورد) وطباعه يا سلمى ؟! إنهُ هكذا دائماً ... مشاعرُ الحزنِ لا تفارقُ تعابيرَ وجهه .

- سلمى : كفاكم إزعاجاً لورد ... أنا واثقة بأنَّ أمراً كبيراً قد حصلَ معهُ اليوم .

- أحمد : أنتِ مخطئة يا سلمى ... تصرفاتُ (ورد) هكذا ولم تتغير منذُ أولِ لقاءٍ لنا بهِ ... أنا لا أعلمُ حتى كيفَ تكونُ شكلُ الابتسامةِ على شفتيْه ؟! .

- ورد : إنهم على حقٍّ يا (سلمى) ، فلا شيءَ جديد ... هكذا أنا منذُ ولادتي ؛ لا أجيدُ الشعورَ بالسعادة مثلَ البقية .

أعلمُ أنكَ تخفي أمراً يا (ورد) ... فلا وجودَ للحزنِ بلا سبب ... ولا وجودَ للفرحِ بلا سبب ... لكن ، مهما كنتَ تخفي من أمرٍ فلن يغيِّرَ ذلك من مشاعري تجاهُكَ ... والقلبُ لن يميلَ سوى للغفوةِ بينَ راحةِ يديْك ! .

هكذا كانت سلمى تكلِّمُ نفسها وهي تكادُ تثقبُ بنظراتِها المُلتاعة السوادَ في أعينِ (ورد) ... ولكنَّ (ورد) غير مُعتادٍ على ذلك ، لا يلاحظُ أمراً كهذا حتى لو كان واضحاً كوضوحِ الشمس ... فهو يصنِّفُ نفسهُ دائماً من الأشخاصِ الذينَ لا يستحقونَ الحبَّ ليلةً تفاوضُ أيامَ العمرِ على سحبِ ما تبقَّى من قطراتِ دمنا ... ومن ثم لنرحل بأفواهٍ مغلقة ...

فالليلُ يرانا هكذا ؛ مجردَ ضيوفٍ وسنرحل ، ونحنُ نراها جنةً باقية ... يرانا كغيومٍ موسميةٍ عابرة ... ونحنُ نراها سماءً مسقوفةً لن تسقط ... فلا أحدَ منَّا يريد أن يصدِّقَ بأنَّ هذهِ الدنيا فانية !.

(ورد) جالسٌ في فراشهِ يناجي نفسه : لمَ أشكو من الأرقِ كلَّ ليلة ولا أستطع الخلودَ للنوم ؟! ولكن كيفَ لعيني أن تغفو يا (ريتاج) وأنتِ لهما راحةٌ وسلامُ ؟! ...فلا القلبُ يكفُ عن التفكيرِ بكِ...ولا هذا العقلُ الناضج يقفُ عائقاً بينَ قلبي ومشاعري لكِ .

أتعلمين ؟! أصبحتُ أحسدُكِ على هذهِ المشاعرِ النابعةِ مني ... فليت شخصاً يحبُني بهذا الشغفِ والجنون كما أحبُّكِ أنتِ ! ولكن ما الفائدةُ من كلِّ ذلك ؟ فأنتِ لا تنظرينَ إلي ولو بنظرةِ صديقٍ مقرّبٍ حتى ! .

قد صُهِرت الجوارحُ في قوالبَ من حديد ، و وُضِعت في دواخِلنا ... وأشرقت الشمسُ على غربِنا وأنارَ القمرُ شرقنا ...

فقامت القيامةُ في قلوبِنا وبُعِثت أرواحُنا الميتةُ من جديد ... أرواحٌ لم تعد تشعرُ ببعضِها ، ولا يهمُّها أحد من أهوالِ المناظرِ حولنا !

- كم تبدو أصواتُ أمواجِ البحر عذبةً ! وكم يبدو هذا المشهدُ جميلاً أيضاً !

- أكادُ أطير فرحاً و لا أصدقُ نفسي يا (ريتاج) ، لا أصدقُ نفسي ..... هل حقاً أنا جالسٌ بقربكِ الآن ؟! ... هل حقاً أنا وأنتِ معاً هنا على هذا الشاطئ بمفردِنا ؟!

- آه من قدرٍ لم يمنحك إلا الظلم ؟! فقد خسرتَ والديْكَ عندما كنتَ صغيراً ، وأكملتَ حياتكَ يتيْماً ، وواجهتَ جميعَ المصاعبِ بمفردِكَ من دونِ أن تشكو لأحد أو تشتكي من أحد ... أتريدُ منهُ سلبي منكَ أنا أيضاً لتكتملَ سلسلةُ ظلمهِ بحقِكَ ؟! ...

أم تفضلُ العيشَ هكذا مبتورَ الأطرافِ لا معينَ لكَ ولا سند لبقيةِ حياتِكَ ؟! أم أنكَ أصبحتَ تكرهُ قربي منك ؟!

- أكرهُ قربَ الجميعِ مني إلا أنتِ يا (ريتاج) ، ولكنني على يقينٍ مُطلق أن القدرَ لن يكونَ كريماً معي لهذهِ الدرجة ... لهذا السبب أنا أخشى أنَّ كلَّ ما أراهُ وأعيشهُ الآن مجردُ حلمٍ وسيزولُ باستيقاظي .

- أقلت مجردَ حلمٍ أليسَ كذلك ؟! تحمَّل العقوبةَ إذاً .

أمسكت (ريتاج) بحفنةٍ من الرمال وألقتها على وجهِ (ورد) ، نهضَ (ورد) خلفها وباتَ يلاحقُها ... وها هي صوتُ ضحكةِ (ريتاج) تلامسُ أوتارَ قلبهِ المشدودة ... وضوضاءُ الحبِّ هذا بدأ بالتلاشي الآن .. فها هو (ورد) يختفي رويداً رويداً من هذا الحلم ... استيقظَ وبصحبتهِ أنفاسٌ متعبةٌ فقط ...

وكأنهُ حقاً كانَ مع (ريتاج) في ذلكَ المكان ! ولكنهُ قد عادَ بدونِها ... نهضَ من فراشهِ و وقفَ أمامَ المرآة ... وارتسمت الابتسامةُ على شفتيه لأولِ مرة .. ثم عادَ الحزنُ تدريجياً ليتمكَّنَ منهُ و يستولي عليه بسهولة ! فورد ليسَ بفريسةٍ صعبةِ المضغ أمامَ أنيابِ الحزنِ الحادة .

- ورد : كنتُ أخشى على نفسي من الوقوفِ أمامكِ حتى أنتِ ... لأنني لا أريدُ أن أرى تفاصيلاً قد أرهقتني ... وأرهقتني جداً .

" يا من ادَّعيْتَ بأنكَ بيتي وسكني كيف أطاعكَ قلبُكَ لتهدُمَ الجدرانَ من حولي ، وأن تلقي بي على أرضٍ قاحلةٍ لا وجودَ فيها سوى لبضعِ كلماتٍ من همساتِ فؤادِكَ وهي تخاطبُني بلهجةِ الحُبِّ والمودة ؟! فمهما حاولتَ أن تُبعِدَ نفسكَ عني وأن تسرقَ أيةَ تفاصيلٍ تذكِّرُني بكَ حتى لو كانت صغيرة ...

لن تستطع أن تأخذَ مني هذهِ الهمسات ؛
فهي من حقي أنا وأصبحت كأي جزءٍ من أعضاءِ جسدي
مزقت (سلمى) هذا الكلام وهي تبكي ، وألقت بدفترِ مذكَّراتِها على الأرض .
- سلمى : ماالذي أكتبُهُ ؟ وعلى من ألقي باللوم ؟ الذنبُ ليسَ ذنبُ (ورد) ، إنّه ذنبي أنا .
يجب أن أنتقلَ من هذهِ الجامعة ... و أرحل بعيداً حتى أنسى ، فكلُ شبرٍ من هذهِ المدنية غارقةٌ بعطرِكَ يا (ورد) ! وعلى كلِّ حائطٍ من هذهِ المدنية ترتسمُ صورتُكَ أمامي ...حتى هذهِ المرآةُ اللعينة في غرفتي كلما نظرتُ إليّها أرى وجهَكَ لآ وجهي ! لم أعد أعرف كيفَ يبدو مظهري منذُ لقائي بك ... لعلني أصبحتُ قبيحةَ المنظرِ لذلكَ تتهربُ دائماً من النظرِ إلى وجهي ؟!.

مشاعرُ الحبُ من طرفٍ واحد تأتي بقوةٍ
دائماً ... وكأنَّ المشاعرَ التي تتوزع على قلبِ عاشقيْنِ
في العادة اجتمعت في قلبٍ واحد ... فأصبحت
تفيضُ ألماً وغراماً في الوقت نفسهِ ... هذهِ المشاعر
لاتهتمُ بشيء سوى السعي لمنحِ الحبّ ... الحبّ فقط .
- ريتاج : هل أتكلمُ أنا أم أنك تريدُ التكلمَ يا
(أحمد) والإفصاحَ عن الأمرِ أمامَ (ورد و سلمى) .
- أحمد : لا يا (ريتاج) دعي الأمر لي ، فأنا واثقٌ
بأنهم سيفرحونَ كثيراً عند سماع هذا الخبر
وسيكونون أولَ المهنِّئينَ والدَّاعمينَ لنا ..
- سلمى : تكلموا ... ماذا هناك ؟ ولمَ هذا الاجتماعُ
الصباحيّ المفاجئ ؟
- أحمد : أنا وريتاج تربطنا ببعض علاقة ... أنا
أحبُها منذُ مدّة وهي تبادلُني المشاعر ذاتَها .
وقف (ورد) جامداً في مكانهِ كأنه مسمار ...

وها هو (أحمد) يطعنُ بكلماتهِ الحادة في قلبِ (ورد) سكينة تلو الأخرى ... تعابيرُ وجههِ بدت كتعابيرِ وجهِ شهيدٍ يلتقطُ ماتبقى من أنفاسهِ ... وشفاههُ ترتجفُ الآن وتصارعُ بعضها بعضاً... و صداعٌ شديدٌ قد أصابَ رأسهُ يرفعهُ ويلقي بهِ في متاهاتِ الألم مُتمنِّياً الاستيقاظَ من هذا الحلم المُوجع ... كما استيقظَ من أحلامِهِ البارحة ... فلا عودةَ من الألمِ بعدَ الآن مهما حاولَ وتصبّر ... ألقى بحقيبتهِ على كتفهِ وأدارَ ظهرهُ ومشى بصمت ... والفؤادُ يخاطبُ العقلَ مُتأثراً بمِا قد جرى الآن ... بلحظتينِ فقط يا (ريتاج) ... بلحظتين فقط ذهبَ فؤادي في طريق وعقلي في طريقٍ أخر ... بلحظتين ذهبت أحلامي الوردية في طريق وآمالي الكبيرة في طريقٍ آخر ... لم أكن أعلم بأنَّ نهايةَ المطافِ ستكونُ قاسيةً هكذا ...

لم أكن أعلم بأنَّ الوجعَ سينهالُ عليَّ بهذهِ الصورةِ المؤلمة ! قد ضاقت بيَ السبلُ يا الله ... و لم أعد أقوى على التحمُّلِ أكثر ... لم أعد أقوى ، ارحمني .

دمعةٌ جبّارةٌ بتأثيرها سقطت على الأرضِ من السماءِ السابعةِ ، وبعثرت معها كلّ ما يقطنُ حولها ..

- نحنُ الملائكةُ لانبكي ... كيفَ لهذهِ الدمعةِ أن تسقُطَ من عيني ... ومن أينَ أتت ؟!

- يجب أن تحمُدَ الله دائماً ؛ فلعلَ سقوطَ هذهِ الدمعةِ تزيحُ عنكَ متاعبَ هذا المشهد ... ألم ترى ملامحَ وجهِ (ورد) ؟! أتصدِّق ، لو كنتُ بشراً مثلهم لكانت الدموعُ تأكلُ وجهيّ الآن .

- بدايةُ قصَّتهِ فقط تبدو بهذا الكمِّ الهائل من الحزن ... فكيفَ ستكونُ النهاية ؟!

- لقد أخبرتُكم سابقاً بأنَّ (ورد) تحديداً واحدٌ من الأشخاصِ المعذَّبينَ بطريقةٍ ينفطر لها القلب ...

ولكنَّكم أنتم من أصررتم على رؤيةِ قصةَ حياتهِ كاملةً .

- ومازلتُ مُصرَّاً إلى الآن أن أكملَ مشاهدةَ قصتهِ لأعلمَ ما الذي أدى بهِ للوصولِ إلى هنا وهو لا يزالُ في ربيعِ شبابه ؟! .

لكلِّ قصةٍ نهاية ... ولكنْ ، هناكَ نهاياتٌ لها بداياتٌ أخرى ... ولكلِّ قلبٍ توأم مشدودٌ به بالشرايينِ والأوردة ... سيلتقونَ حتماً حتى لو بقيَ الرابطَ بينهم شريانٌ واحدٌ فقط ... سيلتقون بأيةِ وسيلة ومهما طال الزمن !

- أحمد : مابه (ورد) ؟ لمَ ذهبَ هكذا وكأنَّهُ لم يُعجب بكلامي؟!

- سلمى : إنهُ متعَبٌ جدَّاً منذُ الصباح لا أكثر ... سأذهبُ إليه وأطمئنُ عن حاله .

أدركت (سلمى) بأن السبب كان (ريتاج) وأنَّ (ورد) يحبُّها لدرجةِ الجنون ...

وفي هذهِ اللحظاتِ تحديداً نسيت مشاعرَها وفكَّرت بمشاعرِ (ورد) التي ذُبِحت دونَ رحمة و احترقت الآن في وهلة ... وقفت أمامهُ وأحسَّت بوهجِ الحريقِ الثائر في أعماقه ... حريقٌ بلا نارٍ أو دُخان ...
فقط تعابير وجههِ كانت دليلاً واضحاً على اشتعالِ هذا الحريقِ الكبيرِ في داخلهِ .

- ورد : هل الأحلامُ دائماً هكذا يا (سلمى) تُفسَّرُ بصورةٍ عكسية ؟! البارحة فقط ... البارحة رأيتُها برفقتي والمسافةُ بيني وبينها ذرَّةٌ من رمالِ الشاطئ ... واليومَ أصبحت المسافةُ بيننا كالمسافاتِ بينَ الكواكب !

- سلمى : كم هي فتاةٌ محظوظة ! فقد وقع أطهرُ القلوب في حبِّها ... ياليتَ هذا الحبَّ الذي تُكنُّه لها كانَ لشخصٍ يبادلُكَ المشاعر بالقوة ذاتِها ... مثلي تماماً !

- ورد : ماذا قلتِ ؟! أنا لا أسمعُكِ جيداً ... ارفعي صوتَكِ قليلاً ...

- سلمى : لا شيء ياورد ... لا شيء ... فقط جئتُ لأودِّعكَ لأنني سأنتقلُ إلى جامعةٍ أخرى هكذا أرادَ والداي ...كن بخير إلى ذلكَ الحين الذي يشاءُ فيهِ القدرُ أن نلتقي .

لم يبالي (ورد) للأمر فهو منشغلٌ بنزيفِ جراحهِ ...

مضت (سلمى) وفي فؤادِها ألفُ انكسارٍ

وانكسار ... رفعت رأسها ونظرت إلى السماء لتمنعَ الدموعَ من السقوطِ بهذه الغزارة .

فرأت خيالَ (ورد) على هيئةِ غيمةٍ تلوِّحُ لها بيديها ... فقالت والغصةُ عالقةٌ في حنجرتِها و تسعى للوصولِ إلى فؤادِها لاشعالِ الحريق :

- سلمى : شكراً لطيفكَ الذي كان دائماً يرفقُ بي أكثرَ منِكَ يا (ورد) .

جهزت حقيبةَ سفرِها ... وأمامَ بابِ المطار أخذت تستنشقُ آخرَ ذراتٍ من هواءِ هذهِ المدنية :

- سلمى : لعلَ ما تنفَّستهُ الآنَ من عطرِكَ يا (ورد) أعيشُ بسببهِ بضعَ سنواتٍ أخرى في هذهِ الدُنيا ... فلا أهوى الرحيلَ عن هذهِ الأرض مادِمتَ فيها .

في بعضِ الأحيان يكونُ الرحيلُ والابتعادُ هو من أفضلِ الحلولِ لكي ننسى ... ولكنْ من طبيعتِنا كبشر أنّنا لا ننسى ... و حتى إن تناسينا فإنَّ مجردَ رائحةِ عطرٍ سيعيدُ إلى أذهانِنا جميعَ الذكريات دفعةً واحدة ... فكلمةُ (النسيان) وُجِدت في المعاجمِ اللغوية لتخففَ الشيء القليلَ من أحزانِنا لا أكثر .

تنظرُ (سلمى) من نافذةِ الطائرة ، وهي تخاطبُ ذاتها :

- سلمى : أنتَ وحدَكَ وردُ هذهِ المدنية وأنتَ ياسمينُها ...

أتمنى لكَ من صميمِ قلبي أن تكونَ (ريتاج) من نصيبكَ في يومٍ من الأيام ... فلعلَ قلبَكَ حينها يجدُ السلام كما ابتعدَ قلبي عن السلام ... ولكنْ ، أتعلم ؟ أحزاني تتضاعف كثيراً ... أينَ أنت لكي أتشاركَ معكَ مثلَ هذهِ التفاصيلِ التي ستمزقُ الأوردةَ إن بقيتَ حبيسةّ في داخلي ؟! ولكن في النهاية لا أستطيعُ القول سوى وداعاً يا (ورد) ... وداعاً ... وأعدُكَ بأنني سأبحثُ عنكَ في الحياةِ الأخرى ... سأبحثُ عن أيِّ شيءٍ يجمعُنا حتى لو بقايا لقاءُ .

في عالمِ الحبِّ لا وجودَ للعدل ... فعلى جرائمِ الحبِ لا يحاسبُ القانون مهما تألمتَ ومهما مزقكَ الموت وعدتَ للحياةِ مجدداً ... لا أحدَ يهتمُ لأمرك ... ومع ذلك فنحنُ بارعونَ جداً في إخفاءِ مشاعرِ الحزن وكأنَّ قلوبَنا قد صُنعت من حجر ! ...

نبكي ونذرف الدموعَ ... وحتى هذه الدموعُ تصبح أوجاعاً ... وقودُها نارٌ وبراكينٌ وأحجارُ ...
وها هي (سلمى) قد رحلت وأصبحت في مدينةٍ أخرى ...و (ورد) لم يعد يخرجُ من منزلهِ كثيراً ... وخفَّفَ حتى من ذهابهِ للجامعة .
سبعُ سنواتٍ قد مرت إلى الآن ... أيامٌ لم تحمل في طياتِها سوى الألم ... وكانَ ذو حظٍ كبيرٍ منها ... من وقفَ على عتبةِ الألمِ فقط .
- ريتاج : ثلاثُ سنواتٍ قد مرت بأيَّامِها وساعاتها وأنا برفقتِكَ يا (ورد) ... ولم أجد منِكَ إلا كلَّ خير.
- ورد : أتمنى لو أنني استطعتُ أن أجعلُكِ تنسينَ قليلاً مما قد مررتِ بهِ .
- ريتاج : أنتَ أخي وصديقي ... ولولا وجودِكَ هنا بجانبي لكنتُ الآنَ عبارة عن جثةٍ بلا روح تتنقلُ بينَ الناس ، ومشوهةَ المشاعرِ والأحاسيس ... شكراً لك من أعماقِ مدينتي المدمَّرة .

- ورد : لا تكلِّميني بهذهِ الطريقةِ يا(ريتاج) ... أنا لم أقم بفعلِ شيء ... فقط أسعى وأجاهدُ دوماً لمسحِ آثارِ الحزنِ على وجهكِ الجميلِ هذا ! .

في بعضِ الأحيان ؛ أحدُنا ينسى أينَ هو الآن ... أو ينسى كم يبلغ عددُ الأشخاصِ الجالسينَ حولهُ في لحظةٍ ما ... يرى فقط شفاهاً تتحرك ولا يسمعُ ما يقولونه .

لأنهُ في هذهِ اللحظة و بعيداً عن مرأى الجميع يرغبُ في الجلوسِ بمفردهِ ... الجلوس مع ذاتهِ ... وأن يغوصَ في قاعِ أفكارهِ مُستذكراً اللحظاتَ المؤلِمةَ والتفاصيلَ المرهقة في حياته فقط ... مثلما يحدث مع (ريتاج) الآن ...

- ريتاج : لِمَ أصبحتَ هكذا بهذهِ البرودة معي ؟! متى ستعلم أن هذا القلبَ ينبضُ بحبِّهِ لكَ وحدَك ؟!

- أحمد : كفى يا (ريتاج) أرجوكِ ... كفى ... الهمومُ في داخلي كثيرة ولا مكانَ لهمٍّ جديد !

- ريتاج : كفاكَ أنتَ يا أحمد ... أرجوك ... كنتُ بصحبتِكَ لمدةِ أربعِ سنوات ... وطوالَ هذهِ الفترة و أنتَ تبادلُني مشاعرَ الحبِّ للحظاتٍ قصيرة ... ومن ثمَ تتمكَّنُ القسوةُ من تصرفاتِكَ تجاهي لأشهرٍ بعدها ... إلى متى ستتعاملُ معي بهذهِ الطريقة ؟! كن رجلاً ولو لمرةٍ واحدة واعترف بأنكَ لا تحبُني ! .

- أحمد : نعم ياسيدتي ... لم تعد هناكَ مشاعرٌ في قلبي لكِ ... أو لأكون صادقاً معكِ أكثر ... أنا لم أشعر بالحبِّ تجاهكِ في يومٍ من الأيَّام ولو مثقال ذرة ! .

شعرت (ريتاج) حينها بأنَّ سماءَ قلبِها التي كانت مرفوعةً بأعمدةِ الحبِّ قد سقطت فوقها ... وأطاحت بِها إلى ما تحتَ الأنقاض .

- ريتاج : لماذا كذبتَ عليَّ إذاً ؟! لماذا قمتَ بخداعي كلَّ هذهِ المُدة ؟! ...

كم كنتُ فتاةً غبيةً يا (أحمد) ! كم كنتُ فتاةً غبية ! لقد سمحتُ لكَ بنفسي أن تجعلَ من مشاعري الصّادقة أضحوكة ... هذهِ المشاعرُ الطاهرة النابعة من قلبي رميتَ بها بعرض الحائط وبادلْتَها بالكذبِ والغدر ... اذهب واغرب عن وجهي الآن ، لا أريدُ رؤيتكَ أبداً .... أفهمتَ ما أقول ؟! عش حياتكَ بعيداً عني ؛ لعلكَ تصادفُ تِلكَ السعادة التي لم تجدها معي و برفقتي .

(ريتاج) في هذهِ اللحظات باتت مثلَ (ورد) واعتبرت نفسها من الأشخاص الذينَ لايستحقونَ الحبَّ .

- ورد : ريتاج ... ريتاج ... أين سافرتِ بتفكيركِ ؟

- ريتاج : لا شيء ، أنا هُنا برفقتِكَ . لم أذهب لأيِّ مكان ... ولكنني أريدُ منكَ الآن أن تتجهَّز ... سنذهبُ إلى منزلي ...

لكي أعرِّفَكَ على أهمِّ شخصٍ في حياتي ...
إنَّها متشوقةٌ جداً لرؤيتِكَ والحديثِ معكَ .
وها هم في الحافلةِ متجهونَ إلى منزلِ (ريتاج) ...
و(ورد) قلقٌ ومتوترٌ كثيراً يطلبُ من ربِّهِ أن تحبَّه أمُّ ريتاج ... لعلها تكونُ الخطوةَ الأولى للوصولِ إلى قلبِ ريتاج ... أمَّا (ريتاج) فقد أمسكت هاتِفَها واستسلمت لمشاعرها مرةً أخرى وقامت بكتابةِ رسالةٍ نصية لأحمد ...
كيفَ حالُكَ يا (أحمد) ؟ أتعلمُ شيئاً ؟! لقد اشتقتُ إليكَ رغم كلِّ ما جرى ... بعد مرورِ ثلاثِ سنوات على انفصالِنا ألا تفكِّر أن ننسى ما حصل ، ونعودَ مرةً أخرى لنسيرَ سويةً على دروبِ الحب ؟! لأنني متعبةٌ جداً ... وهناكَ تراكماتٌ لأحاديثَ كثيرةٍ في داخلي ولا أستطع أن أخبرَ أحداً بِها سواك ... فلم أشعر بالراحةِ إلا بقربِ روحِكَ أنت .

رأى (ورد) بأنَّ (ريتاج) منهمكةٌ مع هاتفِها ... فدلَّته حواسُ قلبهِ بأنها تكتبُ لأحمد .

لِمَ أنت حزينٌ يا (ورد) ... لِمَ هذا الحزن ؟!

هذهِ هي حالُ الدُنيا : نحبُ الشخصَ الخطأ دائماً ، ونتعلقُ بهِ ... ولا نفكِّرُ بالالتفاتِ لمن حولنا لنرى ذلك الشخص الذي يكون على أتمِ الاستعداد دائماً للتضحيةِ من أجلِنا ... والذي يستطيعُ أن يهدمَ من نفسهِ ليبني ما تحطمَ مِنا ! .

قاطعت (ريتاج) أحاديثَ (ورد) مع نفسهِ :

- ريتاج : لقد وصلنا ؛ هيا بِنا لننزل .

وقفَ (ورد) بجانبِ (ريتاج) أمامَ بابِ منزلِها وهي تبحثُ في حقيبةِ يدها عن المفتاح ... وفجأةً قامَ شخصٌ بفتحِ البابِ من الداخل :

- ريتاج : لا تستغرب يا (ورد) ، فهكذا هي أمي ؛ دائماً تشعرُ بمجيئي فورَ وصولي أمامَ بابِ البيت ... أعرِّفُكِ يا أمي : هذا صديقي وأخي (ورد) الذي أحدثُكِ عنهُ دائماً ... ورد هذهِ أُمي (خديجة) المتلهفةُ دائماً لرؤيتِكَ وسماعِ أخبارك .

- ورد : تشرفتُ بمعرفتِكَ يا خالَتي .

- خديجة : تفضل يا ولدي ... تفضل بالدخول ... لِمَ تقفُ هكذا جامداً أمامَ الباب ... تفضل واعتبر نفسك في بيتك أيضاً .

دخلَ (ورد) بخطواتٍ ثابتةٍ و مطمئنة ... وهو يتأمَّلُ الجدرانَ واللوحات الفنية المُعلَّقةَ عليها ... وهو في قرارةِ نفسهِ يحسدُ هذهِ الجدران ، على الرغمِ من أنَّها صامتةٌ و جامدة لأنّها ترى محبوبته (ريتاج) أكثرَ منهُ ... و تشاركها تفاصيلَ حياتها أكثرَ منهُ ...

وها هو (ورد) يقومُ بإغماضِ عينيهِ
ويتنفَّسُ بعمقٍ ليتمتَّعَ برائحةِ عطرِ (ريتاج)
المُنتشرةِ في أرجاءِ المنزل ... فرائحتُها بالنسبةِ لهُ
أروع من رائحةِ أيِّ عطرٍ فرنسيٍّ مميّز ... إنَّها رائحةٌ
لا شبيهَ لها في هذا الوجود ... ولا أحد من أمهرِ
العطارينَ حتى قادرٌ على الإتيانَ بمثلِها .
- ريتاج : سأذهبُ إلى المطبخ لإعدادِ الطعام ...
استمتعوا بالحديثِ سوياً إلى حينِ عودتي ... ولكنْ
يا (ورد) لا تتكلم عني إلا بالخير ، اتفقنا
ياصديقي ؟! .
- ورد : أنتِ الخيرَ ذاتهُ ياريتاج...فمن أيِّ جانبٍ
منكِ سأجلبُ السوء؟؟ للحديثِ بهِ
نظرت (خديجة) إلى وجهِ (ورد) ورأت بكلِّ
وضوح كيفَ أنَّ حبَّ (ريتاج) محفورٌ على كلِّ
تفاصيلِ وجههِ ...

وأصبحت على يقينٍ حينها أنَّ (ورد) يحبُّ ابنتها بمشاعر جيَّاشة صادقة لن تحظى (ريتاج) بمثلها لو عاشت ألفَ حياةٍ أخرى ... ذهبت (ريتاج) إلى المطبخ ... وجلسَ (ورد) مع (خديجة) يتبادلان أطراف الحديث وقد انجذب إليها وإلى حنانها وحديثها الدافئ :

- ورد : هل تسمحينَ لي أن أناديكِ بأمي ...

- خديجة : بالطبعِ يا ولدي .

- ورد : لقد عشتُ يتيماً ... و لا أعلمُ كيفَ يبدو وجه أمي ... حُرِمْتُ من حنان الأمِّ منذ صغري .... عندما كنتُ أُصابُ بالمرض وترتفعُ حرارتي ، كنتُ أفتحُ عيني بصعوبةٍ بالغة ولا أرى أحداً بجانبي يهتمُّ بي ... أصدقائي جميعاً كانوا يتحدثون عن اهتمام الأمِّ وسهرها وتفانيها في لحظات المرض ... ولكنني كنتُ أفتقدُ ذلك ...

أمي هل أنتِ راضيةٌ عني ؟! ارضي عني يا أمي لأعيش فقط هذا الإحساسَ ... ياتُرى كيف يبدو؟؟ ...

- خديجة : أنا راضيةٌ عنكَ ياولدي ... فأنت ملاكٌ مُرْسَلٌ لابنتي ... حتى وإن كانت أمُكَ حيَّة فستكون راضيةً عنكَ ... واثقةٌ من ذلك ... ولم أكن مخطئةً يا (ورد) بحقِّك أبداً ... لم أكن مخطئة ...

- ورد : ماذا تقصدين يا أمي ؟!

- خديجة : عندما وصفتُكَ بالملاك ... هذا لأنَّ (ريتاج) كانت تخبرُني بكلِّ أمرٍ تفعلهُ لإسعادِها .. بكلِّ تضحياتِكَ وكلامِكَ ومواقفِكَ لأجلها ... لن أنسى ذلكَ لكَ ماحييتُ ياولدي .

- ورد : لم أفعل شيئاً يا أمي فريتاج مثلُ ...

- خديجة : أكمل لماذا لا تُكمل ...

أنتَ تحبُّها أليسَ كذلك ؟! اعترف لها بمشاعرِكَ
يا ولدي فأنتَ الوحيد الذي يستحقُ قلبها ...
وسأكونُ من أسعدِ الأمهاتِ إن أصبحتَ زوجاً
لابنتي الوحيدة .
دخلت ريتاج إلى الغرفةِ فجأةً وقاطعت حديثَهما ...
ولأوَّلِ مرَّةٍ يختبرُ (ورد) مشاعراً قادمةً من أرضِ
السعادة .
- ريتاج : الطعامُ أصبحَ جاهزاً ... تفضّلوا إلى المائِدة .
لِمَ الوقتُ يختفي خلف دقائقَ معدودةٍ وأنا برفقتكِ
يا (ريتاج) ؟! حتى الوقتُ لا يشعرُ بأيةِ شفقةٍ على
قلبي المسكين ... لِمَ هذهِ القسوةُ تجاهي من
الجميع ؟! وها قد عدتُ وحيداً بين جدرانِ منزلي
التي سئمت من رؤيةِ وجهي ... وحتى فؤادي ؛
يسلكُ في كلِّ ليلةٍ ممراتٍ مختلفة للوصولِ إلى قفصِي
الصدري ...

فشابَ القلبُ يا الله ولم يعد كما كان ... شابَ القلبُ مبكِّراً جداً ولم تعد الدماءُ في جسدي حمراءَ اللونِ كما كانت ...

كيفَ لهذا القلبِ الذي ينبضُ عنوةً أن يتحلَّى بالشجاعةِ ويبوحَ بمشاعرهِ لريتاج ؟! ... فأنا واثقٌ أنني مهما فعلتُ وقدمتُ لها فلن تقبلَ بي ...

لن تقبل بي حتى لو كنتُ الرجُلَ الوحيدَ على هذهِ الأرض ... لن تقبلَ بشابٍ مثلي .

على نيرانِ الشمسِ أصبحنا نتمنى أن نغفو ؛ فنيرانُ الدُنيا محرقةٌ أكثر ... والأيامُ هناك سريعةٌ أكثرَ من هنا ... والأنوارُ هناك - رغم لوعتِها - باردةٌ أكثرَ من هنا .

- ريتاج : ورد ... أنا أعلمُ جيداً أنَّكَ تخفي أمراً ما ... منذُ أولِ لقاءٍ لنا .

- ورد : نعم ، هذا صحيح ... ولا أعلمُ من أينَ أتتني هذهِ الشجاعة فجأةً ... وأصبحتُ أودُّ بهذا الشغفِ أن أعبِّرَ عن كلِّ شيءٍ في داخلي .

- ريتاج : تكلّم أرجوك ... وأخبرني ماذا تخفي ؟

- ورد : أنا أعشقُكِ يا ريتاج ... أعشقُكِ من أعماقِ قلبي .

- ريتاج : كنتُ أعلمُ ذلك ... لأنَّ الإنسانَ منَّا لا يستطيعُ إخفاء مشاعرِ الحُبِّ مهما كان بارعاً ... ولكنني أفضِّلُ أن نبقى أصدقاءَ فقط .

- ورد : ولكنني مغرَمٌ بكِ ياريتاج ... وسأضحي بنفسي وبكلِّ شيءٍ أملكهُ لأرى الابتسامةَ على شفتيْكِ ... أعدُكِ بذلك .

- ريتاج : ولكنني يا (ورد) وبكلِّ شفافيةٍ و وضوح لم أستطع أن أحبَّكَ ...

فأنا لا أراكَ سوى صديقٍ مقرّب مخلص لا أكثر.
... هالاتٌ سوداء غزت فجأةً عيونَ ورد ... شعرَ بانكسارٍ وخجلٍ في الوقت نفسه :
بالخجلِ ؛ إذ كيفَ لشخصٍ ناقصٍ مثلي أن يطمحَ للإيقاعِ بفتاةٍ جميلةٍ مثلِ (ريتاج) في شباكِ حبِّهِ ؟!
وكانَ الانكسارُ بسببِ هذهِ المشاعرِ في داخلهِ ...
فأصبحت تتراكم فوق بعضِها أكثر ... ولكنهُ هذهِ المرة انكسارٌ لن يُجبر.
- ريتاج : تكلم وقل أيِّ شيء ... لِمَ تقفُ ذاهلاً هكذا ... هل حقاً تبكي ؟!
- ورد : ماذا تريدين مني أن أقولَ ياريتاج ؟! فهذا الذي تسمعينهُ الآن ليسَ بصوتي وإنما روحٌ تخرجُ من فمي مرتديةً ثيابَ كلماتي ... وهذهِ ليست دموعي التي تنهمرُ على ساحاتِ وجنتي وإنما وقودٌ لنارِ جهنم.

- ريتاج : آلاف النساءِ أسيراتُ قلبكَ يا (ورد) ، فاذهب وعش حياتكَ وافتح قلبكَ لحبٍّ جديد ؛ فأنتَ تستحقُ كلَّ الخيرِ والسعادة .

- ورد : لم أعد أرغبُ في أيِّ شيءٍ من هذهِ الدُنيا ... ففي كل مرةٍ أطفئُ فيها الشموع كنتُ أتمنى قربُكِ فقط ... ولكن في هذهِ المرة انطفأت الشمعةُ قبلَ أن أطلب حتى .

استدارَ (ورد) والألم يعتصر قلبه ، ولأوَّلِ مرَّة كان هو من يتركَ (ريتاج) ويذهب ... لقد كانت قاسيةً جداً على قلبهِ ... فجأةً بدأتِ السماءُ تمطرُ بشدة ... وأصبحَ الجو كئيباً وكأنَّهُ قد أعلنَ الحِداد على قلبِ (ورد) الذي قُتِلَ صريعَ الهوى ... و كان هذا المسكينُ يجوبُ الشوارعَ ثمِلاً و بدموعٍ أكثر غزارةً من حباتِ المطر التي تسقط ...

يترنَّحُ يميناً ويساراً ... وها هو يستندُ على أحدِ الأعمدةِ في الطريق ... وصوتُ شهيقٍ عميق مُتعب يخرجُ من جوفِ صدره .

- أنا لم أعد أحتمل رؤيةِ المزيد من هذهِ القصة ... هل ستذهبُ معي أم أنكَ ستبقى هنا وتُكمل ؟!

- مع أنهُ قد أوقدَ الحريقَ بأنواري ، وجعلني أحمدُ الله على عدمِ كوني بشراً مثلهم ؛ ولكنني سأبقى ، فالنهايةُ أراها قريبة ... وسببُ موتهِ أصبحَ وشيكاً على الظهور ... أصبحتُ متشوقاً أكثر لأرى النهاية ... فهو على حقٍّ عندما كان يائساً وعابساً دوماً .

- أنتَ مخطئ .. فمن هنا ستبدأ القصة .. فهذهِ مجردُ نهايةٍ تمهِّدُ لبدايةٍ جديدة ... لبدايةٍ أصعبَ وأبشع .

- أنا سأذهب ... لم أعد أحتمل رؤيةَ المزيد ... أنت ابقَ هنا وسأعلمُ منكَ فيما بعد تفاصيلَ النهاية ... فالكلامُ يبقى أخف وقعاً من رؤية الحدث .

رنينُ هاتفٍ صادرٍ الآن قد تغلَّبَ على هدوءِ هذا المكان ... سارعَ (ورد) إلى هاتفهِ ... أهي (ريتاج) ياتُرى ؟! هل تراجعت عن موقفها بعد أن هزمَها الشوقُ لي ؟! إنها هي ... إنها حقاً هي ...

- ريتاج : ورد تعالَ بسرعة ... أمي تريدُ رؤيتكَ حالاً ... أرجوك أسرِع .

- ورد : لماذا تبكينَ يا (ريتاج) ؟! ماذا جرى؟!

- ريتاج : لا أملكُ الوقتَ الكافي للشرح ... أرجوك تعال فقط ... أسرع .

- ورد : سأكونُ عندكم خلال بضعِ دقائق ... ولكن أخبريني أين أنتم ؟

- ريتاج : في المشفى القريب من حيِّنا ...

أغلقت (ريتاج) الهاتف ، وتركت (ورد) حائراً مع مئاتِ من الأسئلة التي تدور تائهةً في ذهنهِ دون أجوبةٍ واضحة .

- ريتاج : تعالَ يا أخي (يحيى) ... أمي ... لا أعلمُ ماذا جرى لها ؟! عدتُ من الجامعةِ كالعادة ورأيتُها ممدَّدةً على الأرض دون حركة .

- يحيى : أين هي الآن ؟

- ريتاج : في العنايةِ المُشددة .

- يحيى : ستكونُ بخير بإذنِ الله ... لا تقلقي أنا هنا .. وسيكونُ كلُّ شيءٍ على مايرام ... أعدُكِ بذلك ... فقط توقفي عن البُكاء ... يجب أن نتظاهرَ بالقوةِ من أجلِ أمِّنا ... اتفقنا يا أختي ؟!

- ريتاج : لا أستطيعُ يا أخي ... فهذهِ أمي أغلى ما أملك ... أتفهمُ ذلك ؟! لا أستطيعُ أن أمنعَ هذهِ الدموع من السقوط وأنا أراها بهذهِ الحالةِ المُوجِعة ... فأنا أعيشُ في المنزلِ مستنشقةً الهواءَ الممزوجَ برائحتِها .

دخلَ (ورد) من بابِ المشفى وهو يلتفتُ يمنةً ويسرةً ... باحثاً عن رأسِ خيطٍ يقودهُ إلى ريتاج ... وقف أمامَ نافذةِ الاستعلامات وهو يسألُ الممرضةَ بتوتر :

- هل جاءتكم مريضة باسمِ (خديجة) منذُ قليل؟

- نعم في الطابق الثاني ... إنَّها الآن في غرفةِ العنايةِ المُشددة .

أسرع (ورد) و ها هو يصعدُ كلَّ خمسِ درجاتٍ بخطوةٍ واحدة وشفاعته تردِّد : لا تفارقي الحياةَ يا أمي فها أنا قادمٌ إليكِ ...

- ريتاج : " ورد " نحنُ هنا ... تعال ...

- يحيي : من هذا الفتى ؟

- ريتاج : إنهُ صديقي في الجامعة ... أمُّنا طلبت رؤيتهُ ... اصمت قليلاً ... ها هو يقتربُ منَّا .

- ورد : أين هي أمي ؟ ماذا جرى لها ؟
- ريتاج : لا أعلم ما أصابها ؟ إنَّها في هذهِ الغرفة تنتظرُ قدومُكَ إليها .
فتح (ورد) باب الغرفة ... وشاهدَ (خديجة) ممدَّدةً على سريرٍ أبيضَ ملائكيٍّ ... هذا السرير الذي استمدَّ بياضهُ من نورِ وجههِا ... دخلَ وأغلقَ البابَ خلفهُ وجلسَ بجوارِها .
- ورد : أمي ... لقد جاءَ ولدُكِ إليكِ ... هيَّا انهضي بسرعة وتعافي ... تكلمي معي ... لقد اشتقتُ إلى سماعِ صوتكِ .
- خديجة : أنا أسفةٌ ياولدي ... فحتى أنا لم أستطع أن أكون أمَّاً لكَ إلا لبضعةِ أيام ... سامحني أرجوك .
- ورد : لا تقولي هذا الكلام يا أمي ... أقسمُ أنني رأيتُ من اهتمامكِ ما عوّضني عن أمي التي لم أرها .

- خديجة : وصيَّتي لكَ قبلَ وفاتي أن تحققَ لي أمنيةٌ واحدةٌ فقط ... أريدُ منكَ أن تصونَ (ريتاج) فهي قرةُ عيني وأغلى ما لديَّ .

- ورد : لا تقلقي عليها يا أمي ؛ سأكونُ لها أباً وأماً وأخاً وصديقاً ... وسأضعُها بينَ رموشِ عيني .

- خديجة : وزوجاً أيضاً ... لتنتقلَ روحي وهي مطمئنةٌ و واثقة بأن ريتاج بخيرٍ وسعادة ... ولا أرى سعادتها إلا بقربِكَ أنت ... ولن أرى نيرانُ الحُبِّ كيف تثورُ بهذا الشكلِ من أجلِها كما أراها الآنَ في عينيْكَ أنت ...

ولن أجدَ روائِحَ الشوقِ لها من أحدٍ كما أجدها الآن من كلِماتِكَ أنت ... ولن أرى حباً - تعابيرهُ تتكلمُ بهذا الجنون والشغف - كما أراها الآن بِكَ أنت .

جسورٌ ممتددةٌ من رؤوسِنا إلى أقدامِنا ... وعلى جراحِنا المُلتهِبة يدعسُ المُشاة بأقدامِهم كلما مروا ... ويقطفونَ أوردةَ الأزهارَ من حدائقِ أعيُّننا كلما مروا ... وينتزعونَ حتى ضوءَ الشمسِ منَّا إن تجرأت و لامست أراضينا ... وفي الأرجاءِ يغفو كلُّ فقيرِ حلمٍ مثلَنا ... ونحن نجلسُ على حوافِ قلوبِنا متأمِّلينَ الجميعَ بكلِّ تعجُّبٍ واستغراب لِمَ هذا الكمُّ الهائلُ من جمرِ البشر يعيشُ على أجسادِنا ؟! لمَ اتخذوا منا أرضاً أخرى ؟! أإلى هذهِ الدرجةِ نمتلكُ جميعَ سُبلِ العيشِ والبقاء ؟! وياليتهم فقط قد حفروا آثارَ الحريقِ فينا ... ولكنهم قد جعلوا من رفاتِ أجسادِنا أرضاً صالحةً للخرابِ فقط وليسَ للعيش ... ماتت (خديجة) ، بعد أن أوصت ولدها (يحيي) بزواجٍ ريتاج من ورد ...

و بالفعل ، قام الشيخُ بتزويج (ريتاج) من (ورد) أمام أعيُنِ (خديجة) قبل وفاتِها ببضعِ دقائق ... قبلَ صعودِها إلى المثوى الأخير ... إلى المكان الذي لا رجعةَ فيهِ مهما كان الإنسانُ منَّا ذو جبروتٍ وقوّة في هذه الدُنيا .

لا أريدُ أحداً منكم الآن أيتُها الجدرانُ اللَّعينة ... اذهبوا بعيداً عن وجهي ... فكم شعرتُ بالوحدةِ بينكم ! وكم سئمت الروحُ مني ، ومن آلامِ العشقِ الصادرةِ من فؤادي ! فهذهِ الروحُ تريدُ (ريتاجَ) فقط ... تعشقُ النظرَ إلى مبسمِها و عيونها ولا تهتمُ بجماداتٍ مثلكم ... فهي وحدها من يحقُّ لها التصرفِ بي كما شاءت وليسَ أنتم ... وها هي الآن تدخلُ برفقتي إلى منزلي رغماً عنكم ... تدخلُ كزوجةٍ لي أمامَ أنظارِ الجميع ...

ففي عقيدةِ الحُبِّ أنا مؤمنٌ أقومُ بتأديةِ جميعِ الفروضِ والأركان كما هي مذكورةٌ في سننِ الحُبِّ ... وأنا أخطرُ من كافرٍ على أيِّ فريضةٍ تأمرُني بالابتعادِ عنكِ .

- ورد : هذهِ هي غرفتُكِ ياريتاج ... وهذا مفتاحُ بابِ الغرفة لكي تشعُري بالراحةِ والأمان أثناءَ النوم ... لأنني سأنامُ في الخارج ؛ وإن احتجتِ إلى شيء ما أخبريني ...

لا تنظري إليَّ بهذهِ الغرابة فأنا أعلمُ جيداً أنني لو عشتُ ألفَ حياةٍ أخرى برفقتكِ لن تشعري بالحُبِّ تجاهي ... وأنا لن أطلبَ الحُبَّ رغماً عنكِ ... وأعدُكِ بأن يدي هذه لن تلمُسَ شعرةً منكِ ... سأكونُ سنداً لكِ ... لكننا سنعيشُ مثلَ الأخوةِ في بيتٍ واحد ...

وكوني على يقينٍ تامٍّ بأنَّي سأحميكِ من أيِّ أذى ، وأنَّ أظفُرَ إصبعِ قدمِكِ الصغير أغلى عندي من الروحِ والجسد ... وسأنفِّذُ وصيَّةَ أمي (خديجة) مهما كان الثمن .

أعطني يديْكِ ولا تبخلي بالحُبِّ عليَّ ... أعطني يديْكِ لبضعِ ثوانٍ ولنذهبَ سويةً وننثرَ على جراحِ الماضي الورودَ بدلاً من الأملاح ... فالروحُ المتعبةُ في جوفي تنتفسُ بقايا العطورِ الملامسةِ لراحتيْكِ ... والعينُ تعلنُ الانشقاقَ عن محجرها ولا ترى سواكِ يا (ريتاج) ... و لا أريدُ أن أرى أحداً سواكِ ... لا أحد .

هكذا كانَ حديثُ قلبهِ لورد ، وهو واقفٌ ... ساكنٌ ... يتأملُ (ريتاج) فهي تبدو جميلةً أكثر .

وها قد أصبحت (ريتاج) ملكاً لكَ يا (ورد) ، وكأنَّ أمنيةَ (سلمى) قد تحققت بعد كل هذهِ السنواتِ التي مرت ... من يحبُّكَ بحقٍّ هو من يتمنى لكَ السعادة ولو كانت هذهِ السعادة على حسابِ سعادتهِ وأحلامهِ هو ... وهكذا كانت (سلمى) ترى السماءَ بكلِّ ما يوجدُ فيها من نجومٍ وكواكبٍ وغيومٍ وأقمار ... كانت ترى كلَّ هذا في وجهِ (ورد) فقط وكأنَّ وجههُ هو السماءُ الوحيدةُ لها .

بعد خروجِ (ورد) من الغرفة قامت (ريتاج) فعلاً بإغلاق باب الغرفةِ بالمفتاح ...

نظر (ورد) خلفهُ إلى الباب ، وقالَ في نفسهِ : كنتُ أعلمُ ذلك ... لستُ مستغرباً كنتُ أعلمُ ذلكَ حقاً .

ثم جلس (ورد) على ركبتيْهِ وهو يهمسُ قائلاً :

وما الحبُّ إلا صلاةُ فجرٍ على أرضٍ قِبْلتُها موضعَ عينيْكِ يا (ريتاج) ... وما الحزنُ إلا أمرٌ إلزاميٌّ بهجرةٍ قسريةٍ عنكِ .

استيقظت (ريتاج) ليلاً ، وخرجت من غرفتِها متجهةً إلى المطبخ لشُربِ الماء ... وفي طريقِ عودتِها رأت (ورد) ممدَّداً على الأرض ، نائماً بدونِ غطاءٍ يحميهِ من هذهِ البرودة ... فاقتربت منهُ ورأت شاشةَ هاتفهِ مفتوحةً على صورتِها والدموعُ لم تنشف بعدُ على خدِّهِ و لاتزالُ ساخنة ... قامت (ريتاج) بتغطيةِ جسدهِ ، وذهبت إلى غرفتِها .

مهما مرَّت بِنا الأيّامُ فستبقى الأرواحُ لا تهوى العيْشَ إلا بقربِ توءمِها ... إلا بقربِ الشخصِ المُخلِّصِ لها من العذابِ الذي تعيشه في هذا الزمن القاسي ...

وعند الشدائدِ والمصاعب يتبيَّنَ لأرواحِنا من يهواها ومن يستحقُ أن يكونَ لها توءماً وشريكاً فيما تبقَّى من أيامِ العمر ... أمَّا الروحُ التي عشقها (ورد) فقد زرعت في داخلهِ من العشقِ خوفاً ... فإن عشتُ حياةً أخرى بقلبٍ آخرَ وجسدٍ آخر فسأتهرَّبُ من الحُبِّ ... ولن أسمحَ لهُ يا (ريتاج) بالتقربِ مني مجدَّداً ... ماذا تريدينَ منِّي أكثر ؟! لقد أتعبَني عشقي لكِ ؛ أحرق عيني ولوَّعَ قلبي ... أصبحتُ أعودُ دوماً إلى تلكَ النقطةِ التي بدأتُ منها ولا أُحرزُ أيَّ تقدمٍ يُّذكر ... أعودُ إلى مكاني والحيرةُ سجينةُ أفكاري ... والجمودُ يعرقلُ حركتي ... وأتساءلُ : مَنْ يشفي لي جراحَ هذهِ الروح ؟! مَنْ يُّطفئ النارَ في قلبي ... فنارُ حُبِّكِ يا (ريتاج) قد شوَّهَ الفؤاد ولم يعد صالحاً للشفقةِ حتى .

- ريتاج : متعبةٌ أنا ياورد ... حرارةُ جسمي مرتفعةً جداً لا أعلمُ ماذا أصابني ؟ أشعرُ وكأنَّ اللّٰه يعاقبُني على ذنبٍ اقترفتهُ بحقِّ شخصٍ ما .

- ورد : لا تقولي هذا ... فأنتِ ملاكٌ بشريٌّ يا (ريتاج) ومهما فعلت الملائكة تبقى صفحاتُهم نقيَّةً بيضاء كبياضِ الثلج .

مهما فعلتَ يا (ورد) ومهما عاتبتَ (ريتاج) في أحاديثِكَ المُضمرة سيبقى الظاهرُ منكَ غيرَ ذلك ...فأنتَ لاتعلمُ سوى شيءٍ واحد : أن تحبَّ لا أن تكره .

- ورد : أنا ذاهبٌ لأجلِبَ لكِ وعاءً يحوي الماء لأصنع لكِ كمَّادات خافضة للحرارة ... سأبلِّلُ القماش وأضعهُ على جبينِكِ ... فلعل الحرارةَ تنخفضُ قليلاً .

- ريتاج : لا تتركني يا (ورد) ، أخافُ من الموتِ وحيدةً ...أخافُ أن أموت ولا أجدَ أحداً بقربي .

- ورد : لن أتأخر عليكِ يا (ريتاج) ، ولن أدعَ الموتَ يقتربُ منكِ إلا بعد أن يقضي عليَّ أوَّلاً .

وهكذا بقيَ (ورد) طوالَ الليلِ بجانبِها ، ساهراً على راحتها ، يبللُ القماشَ في وعاءِ الماء ويضعُهُ على رأسِها مراراً وتكراراً إلى ذلك الحين الذي انخفضت فيه حرارتُها قليلاً ... وعندما توقفت (ريتاج) عن الهلوسة ونامت ، نهضَ (ورد) ، وأغلقَ بابَ الغرفةِ خلفهُ .

دعني أيُّها الحُبُّ لوحدي وابتعد عني ... دعني أذهب لمُلاقاةِ ربي ؛ فقد ضاع العمرُ مني قبلَ أن أموتَ حتى ... في هذهِ اللحظةِ تحديداً المشاهدُ المؤلمةِ تأتي أمامي ، أتذكرُ كلامَكِ الموجعَ كيف بدا يومها :

-ولكنني أفضلُ أن نبقى أصدقاءً فقط

-ولكن ياورد وبكلِّ شفافيةٍ و وضوح لما أستطع أن أحبُكَ

-فأنا لا أراكَ سوى صديقٍ مقرّب مخلص لا أكثر.

-فاذهب وعش حياتكَ وافتح قلبكَ لحبٍّ جديد

صدى هذه الكلمات عالقةٌ ... مسجونةٌ ... مقيدةٌ في ذهني ... فآاااااهٍ من الحُبِّ يا (ريتاج) ، وما فعلهُ بي ؟! أصبحتُ أتمنى أن أنساكِ كي أرتاحَ ... وأستغفرُ ربي على تلكَ الذنوبِ التي ارتكبتُها بحقِّ قلبي ... وأتمنى التوبة ... أن أتوبَ من العشقِ ، من الفرحِ ، من الوجعِ وحتى منكِ ... وإن بكت عيني على بُعدكِ فسأنتزعُها من مكانِها وأبقى بِلا نظر ! .

فتحت (ريتاج) عينها وغادرت السرير ... فتحت باب الغرفة و رأت (ورد) ...

نائماً أمام الباب وهو جالسٌ على ركبتيْهِ :

- ريتاج : ورد ... ورد ... انهض .

- ورد : ريتاج ... هل أنتِ بخير ؟ أتريدينَ شيئاً ؟

- ريتاج : أنا بخير ... أصبحتُ أفضلَ بكثيرٍ من البارحة ... ولكني فتحتُ باب الغرفة ، و وجدتُكَ نائماً هنا على الأرض .

- ورد : لقد تركتُكِ البارحة وأنتِ نائمة ... فجلستُ هُنا أمامَ الباب ، وقلتُ في نفسي ربما تستيقظينَ فجأةً وتحتاجينَ لشيءٍ ما ، فبقيتُ هنا لأكونَ قريباً منكِ ... ولكنْ من الواضحِ أنَّ النعاسَ قد غلبني ، وكانَ أقوى من عزيمتي !

- ريتاج : قم واذهبْ إلى فراشِكَ لتشعُرَ بالراحة بعدَ كل هذا التعبِ والعَناء في الليلةِ الماضية ... أشكرُكَ على كلِّ شيء .

لم يبقَ للحُبِّ في دُنيانا سوى فسحةٍ صغيرةٍ يسكنُها (ورد) وقليلٌ من أمثاله ... هذه المجموعةُ الوحيدة التي نجت من آثارِ الخرابِ حولِنا ... وحافظت على مشاعرِها الصادقة من أكاذِيبنا ... أفرادُ هذهِ المجموعةِ تحديداً يعشقونَ إلى حدِّ الجنون ، ولكنْ لا أحد يكترثُ لمشاعرهم ... نرى هذهِ المشاعرَ وكأنَّها ضعفٌ وغباء و لا فائدةً منها ... ولكنها أصدقُ حتى من جميعِ المعاني والكلماتِ الموجودةِ في قوامِيسنا .

ها أنا قادمٌ إليكِ يا أمي لكي أشبعَ من رائحةِ ترابِ قبرِكِ ... فغداً ربما تُتاحُ الفرصةُ لي أن أراكِ أو لا ... ها أنا قادمٌ لأضعَ رأسي بجوارِ رأسكِ ، ولأنسُجَ من بينِ ثنايا كلماتكِ الحنونة معطفاً لقلبي المسكين الذي يكادُ يتوقفُ عن النبضِ من برودةِ مشاعرِ ابنتكِ تجاهي .

ها هو (ورد) جالسٌ على كرسيٍّ متحرِّك وفي طريقهِ إلى قبرِ (خديجة) في ذكرى وفاتِها الأولى يحملُ معهُ الوفاءَ والإخلاص لوعدهِ لها ... وتمرُّ أمامَ أنظارهِ الآن مشاهدٌ من حديثهِ مع الطبيب الذي كان مشرفاً على وضعِ ريتاج الصّحّيّ :

- ظهرت النتائج وأنسجةُ كليتيْكَ متوافقةٌ مع أنسجةِ كليتيْ (ريتاج) .

- لكَ الحمدُ والشكرُ يا ربّ ... فلتبدأ بالعمليةِ حالاً ولكنْ أرجوك أيُّها الطبيب إن استيقظت قبلي فلا تخبرها أنني أنا من تبرَّعْتُ لها بكليتي .

- ولكن توجدُ أمامنا مشكلةٌ كبيرة يا (ورد) .

- لا تبالي أيُّها الطبيب ، فمهما كانت المشاكلَ والعقبات أريدُ أن تنجو (ريتاج) وتعودَ إلى حياتِها الطبيعيِّة .

- تمهَّلَ ولا تكن مُتسرِّعاً ... فبعدَ قيامي بإجراء الفحوصاتِ تبينَ لي أنَّكَ أنتَ أيضاً تمتلكُ كليةً متضرِّرةً ... وإن تبرَّعتَ بالكليةِ السليمة فلن تعيشَ طويلاً .

- ماذا ؟! وإن يكن ... ابدأ بالعمليةِ حالاً ...

لا تهمُّني حياتي ... حياة (ريتاج) هي الأهمُّ بالنسبةِ لي ... لقد قطعتُ وعداً بأن أحميها من كلِّ مكروه ؛ فلا فائدةَ من حياتي إن عشتُ أنا وماتت هي ... ما الفائدةُ أخبرني إن ماتَتِ الروحُ وبقيَ الجسدُ فقط ... إنَّ سرَّ أيامي يكمنُ في عينيْها أيُّها الطبيب فهذهِ الدُنيا بما فيها تبدو فارغة بدونِ عينيْ حبيبتي ... لذلك ابدأ بالعمليةِ ولا تتردَّد ؛ فالهلاكُ بالنسبةِ لي لا يعني الموتَ ، و إنما حياةٌ لا أشتمُ فيها عطرُ خطواتِ قدميِّها وهي تسيرُ على هذهِ الأرض

- ورد : لقد كنتُ وفيّاً لوعدي لكِ يا أمي ... اشهدي على ذلك ... فابنتُكِ (ريتاج) في البيتِ الآن وهي بألفِ خير ... وأنا الآنَ أقومُ بعدِّ الدقائقِ المُتبقيةِ لي مترقباً الموتَ في أيَّةِ لحظةٍ ... لن أُطيلَ الغياب عنكِ يا أمي دقائقٌ معدودةٌ وسأصبحُ بجوارِكِ ... اشتقتُ لكِ حقاً ... وكما ترين ؛ لم تعد أقدامي تقوى على حملي فأصبحتُ أجلسُ على كرسيٍّ مُتحرِّك ... فهذهِ الكليةُ المُتضررة التي بقيت في جسدي قد أرهقتني وأصبحت تحتاجُ إلى الغسيلِ ثلاثَ مراتٍ في الأسبوعِ الواحد ... ولكن لا أشعرُ بالوجعِ يا أمي عندما أرى (ريتاج) وهي تطوف من حولي ، لا أشعرُ بشيءٍ سوى بعذوبةِ صوتِ خطواتِها التي تمتزجُ مع أصواتِ دقاتِ قلبي ...

هل أخبرُكِ سراً ؟! أنا أمثِّلُ على (ريتاج) بأنني لا أستطيعُ تحريكَ يدي لكي أشعُرَ بيديْها وهي تطعمُني ... والآن قد جئتُ إلى هُنا بدونِ علمٍ منها لأنني أشعرُ باقترابِ أجلي .

فالمسافةُ بيننا الآن قيدُ شعرةٍ و أوشكت على الانقطاع وإعلانَ نهايتي ... نهايةَ قصتي ... وقد كانت أمنيتي الأخيرة أن أقبِّلَ يديْها ، وأرجو منها السماحَ والمغفرة ...لا تستغربي يا أمي ، فأنا ارتكبتُ أكبرَ الذنوب عندما أحببتُ فتاةً بكمالِ (ريتاج) .

وأنا بهذا النقص كيفَ يمكنني أن أطمعَ بامتلاكِ قلبِ فتاةٍ كاملةٍ مثلها ..... لن ألومَ (ريتاج) على أيِّ شيء فأحلامي أنا هي التي كانت كبيرة ؛ وليسَ لها ذنبٌ في ذلك ... وإن عشتُ حياةً أخرى فأنا لا أستحقُ الحبَّ منها ... فالحُبُّ لم يُخلق لشخصٍ مثلي ! .

وبهذهِ الكلماتِ الأخيرة وعلى قبرِ (خديجة) ؛
أغمضَ (ورد) عينيهِ ورحلَ عن هذهِ الدُنيا تاركاً
خلفهُ آثارَ قطراتِ دمعٍ على ترابِ (خديجة) ، فحتى
هذهِ الآثار قد زالت بسرعة ولم تبقى طويلاً .
ولكن متى ستعلمُ يا (ورد) بأنَّكَ الوحيدُ الذي
يستحقُ الحبَّ ، وبأنَّ جراحَكَ هذهِ المرةِ قد حفرت
في داخلِكَ أوكاراً عميقةً جداً ... حفرت إلى ذلك
الحدِّ الذي أودَى بِكَ إلى الهلاك .
- يا ربّ ، أتوسَّلُ إليكَ أن تحوِّلَ هذا النور الذي
يسكنني إلى بشرٍ مثلهم فكم أريدُ البكاء مع أنني
لم أذق طعمهُ يوماً ! .
- هذهِ هي النهاية ... على هذا الترابِ قد مات (ورد)
وفارقَ الحياة في ومضةٍ سريعة من الزمن ... خرجت
روحهُ منهُ من دونِ أن يشعُرَ بها حتى ... خرجت
وهو يعبِّرُ عما في داخلهِ .

- ياليتني قد رحلتُ مع صديقي ولم أشاهد هذهِ النهاية القاسية ..... ليتني فعلتُ ذلك ...

- همومُ البشرِ كثيرة أيُّها الملاك وقصصهم مؤلمة وحياتُهم متقلِّبة ؛ تحملُ أحياناً أياماً سعيدةً و وأحياناً أخرى أياماً موجِعة ... لذلك إياكِ والعودةَ إلى ملاكٍ أخر للبحثِ في حياةِ شخصٍ قد غلبكَ الفضولُ لمعرفةِ قصتهِ .

- لن أقومَ بذلك مجدداً ... فقد أتعبني الشعورُ بالوجع والظلم .

تعالي إليَّ وخذيني بينَ سماءِ أحضانكِ ... فالروحُ في داخلي قد ابتُليت بالاختباءِ خلفَ أنوارِ الشمس ... فتعالي إلي وحرِّريني وأمسكي بمعصمِ يدي وخبِّئيني بينَ طيَّاتِ أوردةِ فؤادكِ ...خبئيني في أيِّ مكانٍ سحريٍّ من قلبكِ ... واتركيني بعدها نائماً على سريرِ أوجاعي التي حسبتُها قد زالت بموتي !

ودعيني وحيداً لبضعةِ أفراحٍ فقط ... فقلبي ليس مُعتاداً على الفرحِ لأيامٍ متواصلة ...

دعيني أسبِّحُ خالقي على جمالِ هذهِ الفتاةِ الممتزجةِ بروحي ... فرغم هذا القُربِ بيننا إلا إنني اشتقتُ إلى وصالِها ... فتعالي إلى قبري وقبِّلي عظامي المبعثرةِ أسفلَ التراب لكي أحيا من جديد ، وأعدُكِ حينها أنكِ ستعشقين قلبي رغماً عنكِ .

- عامر : أراكَ ياصديقي جالساً تكلِّمُ نفسكَ بأحاديث شاعرية ... أخبرني مابك ؟!

- ورد : لقد اشتقتُ لها يا (عامر) ... سبعُ سنواتٍ منذُ وفاتي ولا أعلمُ عنها أيَّ شيء ... سبعُ سنواتٍ وأنا محرومٌ من زيارتِها لقبري ... سبعُ سنواتٍ وأنا لم أسمع فيها أيَّ صوتٍ يخرج من فمِها إلى أذُني حتى في الأحلام ...

لا أعلمُ لماذا حتى الروحُ أيضاً قد امتنعت عن زيارتِها فكلما قمتُ بإغلاقِ عيني لا أرى نفسي بجانبِها مثلما كنتُ مُعتاداً ... وغداً ذكرى وفاتي الثامِنة ... سأجلسُ بجوارِ قبري من طلوعِ الفجر ... راجياً من الرحمنِ أن يرسلها إليَّ ...حتى وإن أتت على هيئةِ خيال !

- عامر : كن بخير ياصديقي ، كن بخير لأجلي ... وأتمنى من صميمِ قلبي أن تأتي (ريتاج) غداً لزيارتِكَ ... سأذهبُ في رحلةِ البحثِ عن أمي فقد علمتُ البارحة بأنَّها قد ماتت ، لعلَّني أصادفُها وأخفِّفُ جزءاً من الهمومِ على قلبي .

شعرَ (ورد) بخطوات (ريتاج) خلفهُ...خطواتٌ تقتربُ منهُ أكثر فأكثر ... وضعت (ريتاج) يديْها على كتفهِ وعندما التفتَ (ورد) لم يرى شيئاً ...

لم يرى حتى بقايا سرابٍ يُجبرُ بهِ خاطرَ قلبهِ المكسور.

هذا ليسَ بالوقتِ الملائمِ لرحيلكِ ، فإلى أينَ أنتِ ذاهبةٌ مجدَّداً ؟! لقد خيَّمَ على سماءَ الليلِ سوادٌ لم أرى مثلهُ من قبل ... وحتى هذا الشمعُ المشتعلُ على أناملِ يدي قد انطفأ ... فأبقيْ بجانبي لأشعر بالدفء ولو لمرةٍ واحدة في حياتي ... ابقيْ من أجلي هذهِ الليلةَ فقط ... ولا تتخلَّ عني ؛ فأنا أخاف ... أخافُ كثيراً من البقاءِ لوحدي يا (ريتاج) ... ولكنني في السنواتِ السَّبع التي مرت كنتُ لوحدي ... وسُلِبَ مني حتى حقُّ رؤيةِ طيفكِ في المنام ... تعالي ... أرجوكِ ... لا أريد رؤيتكِ بالكامل ... فقط دعيني ألمحُ بضعةً من رمشِ عينيْكِ ... ولكنني الآن راضٍ ؛ فسعادةٌ فجائيةٌ تغلغلت في أعماقي عندما شعرتُ بابتسامتكِ قبلَ أن تضعي يديْكِ على كتفي ...

فأصبحتُ أتمنى أن أعودَ إلى الحياةِ مجدداً لأموتَ مرةً أخرى في هذا المكان الذي لامست فيهِ يداكِ كتفي !.

وها نحنُ نمشي في هذهِ الدُنيا ولا نعلمُ نهايةَ الطريقِ إلى أين ... أو أينَ هو الطريق ؟! تشيخُ المشاعرُ فينا وتبقى هكذا منسيِّةً مرميِّة ... وبأنفُسِنا نحفرُ ثقوباً أخرى على كاملِ أجسادِنا ... نحفرُها بإبرةٍ مستعارةٍ من وهمِ أشواقِنا ... ونقفُ على حافةِ السقوطِ إلى الهاوية .

ومع ذلك نخبرهم أنَّنا بخير ... بخيرٍ جداً ... ولا نشتكي من أيِّ شيء .

أنا هُنا يا حبيبتي ... أنا هُنا ... لقد تجاوزتُ بجسدي هذا - المصابِ بالرعشة - كلَّ الحدودِ والحواجز ... أنا هُنا يا (ريتاج) وأبقيْتُ كل العقباتِ خلفي ... أنا هُنا ولن أتركِكِ تشعرينَ بالوحدةِ مُجدداً .

وعلى صرخاتِ العشقِ من فؤادهِ، نهضَ (ورد) من نومهِ ورأى الشمسُ مشرقةً وهو بجوارِ قبرهِ :

- ورد : عندما أراكِ لا أعلمُ ماذا يصيبني يا حبيبتي إذ يدفعني اللاشعور - وأنا واقفٌ في مكاني - إلى احتضانكِ بشدة ... وفضاءُ خوفي يضيقُ من شوقي لكِ ... ومنذُ أن رأيتُكِ يا (ريتاج) وأنا أشعرُ بأنِّي ميتٌ وأنتِ يسوعي .

دقاتُ الساعةِ اليتيمة لم تفلح بجلبِ السعادةِ لهُ ... وجميعُ هذهِ المقابر التي تحيطُ بهِ لا تكفي لأن تدفنَ الأرواحَ التي قد ماتت فيهِ .

- ريتاج : كيفَ حالُكَ يا (ورد) ؟! اليوم هو ذكرى وفاتِكَ الثامنة ... أيامٌ قد مرت بسرعةٍ كبيرة ولم أشعر بِها ... أودُّ أن أعرِّفُكَ على أولادي :

هذا الشابُ الصغير أسميّتُهُ (ورد) تيمُّناً باسمِكَ لأنَّكَ قدمت لحياتي الكثير... وهذهِ الفتاة أسميّتُها (جوري) مثلما كنتَ تُحبُّ ...

روحُ (ورد) واقفةٌ في مكانهِا وكأنَّها تخوضُ معاركَ ضارية مع نفسِها لتتحررَ من نفسِها .

- ريتاج : أتصدِّق بعد كل هذهِ المدة التي عشتُها بدونِكَ ... أنني الآن أشتاقُ إلى تواجُدِكَ معي ...فبينَ الحينِ والآخر أقومُ بزيارةِ بيتِكَ ... و أتذكرُ جميعَ الأشياءَ التي حدثت وكأنَّما أرى المشاهد وهي محفورةً على الجدران ... فلم أشعرَ يوماً بجوهرِ حُبِّكَ لي كما أشعرُ بهِ الآن ... لم أنساك يا (ورد) ، ولكنَّ همومُ الدُنيا ومشاغلَها كثيرة ... لا أستطيعُ أن أفعلَ شيئاً سوى أن أدعو لروحِكَ في صلاتي أن تجدَ في العالمِ الأخر الأمان والخلاص ...

كن بخير يا (ورد) من أجلي ... وداعاً إلى ذلكَ الحين الذي يشاءُ فيهِ الخالق أن يرسلني إليك ... فهناكَ حكاياتٌ وقصصٌ كثيرة في داخلي أودُ أن أتشاركها معك .

وها هي (ريتاج) تمسك بيدِ أولادِها و تبدأ بالمشي ... استدارت فجأةً وشعرت بأنَّها قد سمِعت صوتَ (ورد) .

- ريتاج : لا تخف يا (ورد) ، لن أطيلَ الغيابَ عنكَ هذهِ المرة ... أعدُكَ بذلك .

لم يبقى من (ورد) سوى أجزاءٍ متفرِّقة يا (ريتاج) ...وحتى خلفَ أسوارِ مناطقِ قلبهِ ، هنالكَ نيرانٌ كلما أخمدها تعودُ دموعهُ لتحييهِ ... يتوسَّلُ إليكِ أمامكِ وفي أحلامكِ ... يتوسَّلُ جالساً بالقربِ من أقدامكِ ... مُتمنياً فقط أن تعشقيهِ ...

لم يكن ميتاً قبلَ ثمانيةِ سنوات ... هو ميتٌ الآن ... فكيفَ سيبقى وعيناكِ هما اللتان كانتا تحييهِ !.

- أنا الملاكُ المسؤولُ عن عالمِ البرزخ ... أخبرني ماذا تريد ؟! وعمَّن تبحث ؟!

- أبحثُ عن صديقي (ورد) ... لم أرهُ منذُ يومِ ذكرى وفاتهِ ... ذهبَ ليجلسَ بجوارِ قبرهِ ولم يعد .

- لاتقلق ... فالزيارةُ الأخيرةُ لريتاج لهُ كانت ستحكمُ على روحهِ بالموت مرةً أخرى ... فقمنا بنفيهِ إلى مكانٍ معزول عن أرضِ هذا العالم ... ومحونا ذاكرته لكي ينسى ما حصل ويبدأ بدايةً جديدة .

وها هو (ورد) يقومُ بتحريكِ رأسهِ في جميعِ الاتجاهات ... يرى المكان من حولهِ فارغاً كالفراغِ الذي أصابَ ذاكرتهُ .

- ورد : من أنا ؟ أينَ أنا ؟ ...لا أعلمُ ما هو اسمي أو من أكون ؟ ... لا أعلمُ من هي أمي أو من هو أبي ؟! ... ولا أتذكرُ شيئاً من حياتي ... ولا أعلمُ حتى متى أصبحتُ كبيراً بهذا الشكل ؟ ... ولكن أتذكرُ أمراً واحداً فقط ولن أنساه :

أتذكَّر أنني في يومٍ من الأيام أحببتُ فتاةً تُدعى (ريتاج) ! .

W.k